أبو الحسن علي الحسني الندوي

بين الدين والمدنية

مؤسسة الرسالة

بين الدّين والمدنيّة


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فقد كان من عادة « المجمع العلمي » في الجامعة الملّية الإسلامية في دلهي ،أن يوجه دعوة إلى كبار المفكرين الإسلاميين في الهند،في أعوام مختلفة لإلقاء محاضرة لها صلة بالحياة والمجتمع ، والفلسفة والتاريخ ، أذكر منهم على سبيل المثال العلامة الكبير الشيخ عبد الرؤوف الدانافوري ،صاحب كتاب «أصح السير» في السيرة النبوية ، فألقى محاضرة عنوانها « الإسلام والقضايا المدنية المعاصرة » ، كان لها دوي في الأوساط العلمية ، وكالعالم السلفي ، المحقق الضليع ، العلامة محمد ابراهيم السيالكوتي .

ووجه المجمع في سنة ١٩٤٢ م الدعوة إلى كاتب هذه السطور

وكان لا يزال في بداية رحلته العلمية التأليفية ، قد ناهز الثلاثين من عمره ، لم يصدر له من المؤلفات إلا «سيرة السيد أحمد شهيد» ، وبعض المقررات الدراسية باللغة العربية لطلبة دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، التي كان يدرّس فيها ، فاستصغر نفسه أمام هذه المسؤولية العلمية ، والشرف الأدبي الكبير ، ولما كانت هذه الدعوة قد وجهت إليه من أستاذه المفسر الشهير ، والمؤلف الطائر الصيت صاحب الفضيلة الشيخ عبد الحي الفاروقي رئيس القسم الديني في الجامعة ، وكان في جد وإلحاح ، لم يسعه إلا القبول ، وأراد أن يتدارك حداثة السن وخمول الذكر بإعداد هذه المحاضرة إعداداً لائقاً بمقام الجامعة العلمي ، والمجموعة المختارة الموقرة التي ستستمع إليها ، فأضنى نفسه في دراسة تاريخ الفلسفة القديمة والحديثة ، وتاريخ الحضارات والمجتمعات البشرية التي ظهرت في عهود مختلفة ، ثم التأمل في القرآن الكريم الذي كان موضوعه الرئيسي في المواد التي كان يدرّسها في دار العلوم ، فخرج من كل ذلك بتأملات ودراسات ، صبّها في هذه المحاضرة التي كان عنوانها « بين الدين والمدنية » .

وألقيت هذه المحاضرة في شتاء ١٩٤٢ م في إحدى قاعات الجامعة للمحاضرات ، وقد رأس الاحتفال الأستاذ سعيد أحمد الأكبرآبادي الأستاذ في إحدى كليات العاصمة الشهيرة آنذاك[١] ،

---

(١) رئيس القسم الديني في جامعة علي كره الإسلامية سابقاً ، ورئيس تحرير مجلة « برهان » العلمية الصادرة من دلهي حالياً .

وحضره المرحوم الدكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجامعة ، وأحد رجال التعليم والتربية في العالم ، ورئيس الجمهورية الهندية سابقاً، وكبار أساتذة الجامعة وأعيان البلد، وقد نالت استحسان المستمعين ونشرته مكتبة الجامعة بعنوان « مذهب وتمدن » في سنة ١٩٤٣ م، ونفدت الطبعة في مدة قصيرة ، ونشرتها « إدارة نشريات إسلام » (رحيم يار خان) في باكستان .

ولفت الأستاذ محي الدين – أحد أعضاء المجمع الإسلامي العلمي في لكهنئو – نظر المؤلف إلى أهمية هذه المحاضرة وقيمتها العلمية ، وأبدى ضرورة نقلها إلى اللغة الانجليزية ، وكاد المؤلف يتناساها في مجموعة مؤلفاته وكتاباته فوافق على المشروع ، وقام الأستاذ محي الدين بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ، وقام المجمع الإسلامي العلمي بنشر الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ م م والطبعة الثانية في ١٩٧٥ م ، وقد نالت القبول في الأوساط العلمية الجامعية والثقافية في الهند .

وقد رأى المؤلف أخيراً أن يطلع عليها المثقفون والباحثون في الشرق العربي الإسلامي ، وطلب منه الأستاذ شمس الحق الندوي المدرّس في دار العلوم أن ينقلها إلى العربية ، وأجاب المؤلف طلبه تحقيقاً لرغبته في انتشار هذه المحاضرة في الأقطار التي تتكلم اللغة العربية ، شأنه في كل ما يؤلف ويكتب في اللغة الأردية – وإن كانت اللغة العربية هي اللغة التي نالت النصيب الأكبر في كتاباته العلمية والبحوث الإسلامية – وقد اجتهد

الأستاذ المترجم في نقل هذه المحاضرة إلى اللغة العربية ، لكثرة المصطلحات العلمية الفلسفيـة ، والمقتطفات والنقول من كتب الفلسفة الحديثة ، والإحالة إلى مؤلفيها ومراجعها ، وأجال فيها المؤلف نظره ، وتناولها بالتنقيح والتهذيب ، ونقل النصوص الإسلامية العربية بلفظها ، وهكذا جاءت هذه المحاضرة كما أنها ألقيت باللغة العربية .

وها هي هدية إلى القرّاء العرب ، والشباب الإسلامي المثقف والعاملين في مجال الدعوة ، ونشر الفكرة الإسلامية في أوساط الجامعات والكليات والمجامع العلمية ، والحلقات الواعية التي تعتني بجانب الإسلام العلمي والفكري ، وترغب في أن تعرف مركز الإسلام والحضارة الإسلامية بين الفلسفات والحضارات ، والمجتمعات وأنماط الحياة ، والله الهادي إلى سواء الصراط .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

المجمع الإسلامي العلمي ـ لكهنئو

١٩ من جمادي الآخرة ١٣٩٨ هـ ٢٧ من مايو ١٩٧٨ م

بين الدين والمدنية

تساؤلات مشتركة بين الدين والفلسفة والمدنية :

للدين والفلسفة والمدنية تساؤلات مشتركة متشابهة ، يقوم أساس كل منها على جوابها ، مثلاً ، ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره ؟ هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة ؟ فإن كانت فما هي طبيعتها ؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة ؟ ثم ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع ، ومن الذي يديره بمثل هذه الدقة والنظام، والحكمة البالغة الشاملة، والقانون المحكم المتين ، وما هي صفاته وصِلته بالإنسان ، وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به،وهل هناك قانون خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم ، فإن كان فما هي تفاصيله ، وما هي مكانة الإنسان الصحيحة، ومنصبه في هذا الكون ؟ هل هو حر طليق لا يتقيد بقيود وأحكام، أم هو تابع محكوم ؟ هل هو مسؤول أمام أي قوة ومحكمة أخرى ، أم أنه حرّ طليق لا مسؤولية عليه ؟ ثم ما هو أسمى مطلوبه ؟.

هذه الأسئلة الأساسية الأولية،هي التي لا يستطيع أن يهملها أو يصرف عنها النظر – ولو للحظة – أي نظام له صلة بأعماق الحيـاة ، وتتعمق جذوره إلى نفس الانسان وعقله ، وتتشعب فروعه فتسع جميع أجزاء الحياة الانسانية وتحيط بجميع نواحيها وجوانبها .

الدين يدّعي أنه يضمن الإجابة على هـــذه الأسئلة بحتمية ووضوح ، والفلسفة تبحث عن هذه المسائل ، والمدنية (بمعناها الواسع العميق) تقيم بناءها على هذه الأسس والمبادىء ، إننا لا نستطيع أن نبتّ في أي مسألة من المسائل الحقيقية للحياة قبل أن نردّ على هذه الأسئلة، كما أننا لا نستطع أن نُعِدّ أي تخطيط للمدنية والإجتماع بدون ذلك،وكل مدنية أو حضارة مهما كانت سطحية مادية ، تضمن جانباً من جوانب الإجابة على هـــذه التساؤلات الأمر الذي يقوم مقام الحجر الأساسي لبنائها ، ويؤثر من أعماق أساسها إلى ذروه قصورها وقمتها على السواء ، فمن هذا المنبع الفكري تنبع جميع منابع حياتها وتتعين اتجاهاتها ، إن الاجتماع والمعاملات والأخلاق ، والسياسة ، والقـانون ، والعلم والفلسفة ، والتربية والثقافة ، وما عدا ذلك من مظاهر الحياة الخارجية منها والداخلية ، كل ذلك ظلّ لهذه الفكرة الأساسية فإن كنت على خبرة بأن أمة أو مدنية اختارت في الإجابة على هذه الأسئلة المذكورة الجانب الفلاني يتسنى لك أن تقوم أنت بنفسك بملأ كل فراغ أو خليّة تتضمنها حياتها ، أما إذا كانت

عندك معرفة دقيقة لخصائص حيـــاة خاصة أو مدنية خاصة تستطيـع أن تتوصل إلى الجانب الذي اتخذتـــه أو المنهج الذي انتهجته في الإجابة على هذه الأسئلة .

ان هذه الأسئلة تنبـع من الفطرة الإنسانية ، وتاريخها قـديم كقدم الإنسان ، ولقد انبعثت هـذه التساؤلات في كل عهد من عهود التاريخ وأجيب عليها كذلك ، ثم قامت على أساس هـذه الأجوبة فلسفات وحضارات مختلفة وظهرت نظم عديدة للحياة تقوم بدراستها حيناً لآخر ، وطالما لا تسمح لنا رسومها الظاهرة وزخارفها البارزة بأن نقوم بتحليل عناصرها الأولية ، ونطلع على طبيعتها التي تمتاز بها عن المدنيات الأخرى .

وهنا نقف وقفة قصيرة ونبحث عن الوسائل التي تساعدنا في الإجابة على هـذه الأسئلة وكيف واجهها الناس من قبل ، ولكي نردّ عليها يجب أن نتفقد قوانا ومداركنا قبـل كل شيء ، التي تعيننا على الإجابة الصحيحة على هذه التساؤلات .

وسائل الجواب ونقدها عملياً :

الحواس : إن الحواس الخمس هي الموهبة الكبرى العامة التي منحها الله إيانا لاكتساب العلم والمعرفة ، والتي نتمكن بهـا من اكتساب عـلم اليقين [1] ، إذ ليست عندنا معارف ومعلومات

(١) ان كثيراً من فلاسفة الغرب يقولون ان الحواس وسيلة ضعيفة مشكوك فيها لا يعتمد عليها ، يقول نكولاس مليبرانش (Nicolas Malebranche) أحد علماء القرن السابع عشر في كتابه « البحث عن الحق » : ان اكبر =

أكثر بداهة وقطعية من المحسوسات، وإننا لم نكتشف هذا العالم ولم نرتبط به إلا عن طريق هذه الحواس ، التي اطلعنا بهـا على كثير من القوانين الطبيعية ، والظواهر الكونية ، عندنا ذخائر كبيرة من المناظر والمسموعات ، ومن المرئيات والمحسوسات ، ولذلك فلا بدّ من التفكير في الأسئلة المذكورة أعلاه من جديد والتوصل إلى حل كل سؤال بقوة هذه الحواس .

أفهل نستطيع أن نفعل ذلك ؟ إذن فلنبدأ بالسؤال الأول ، ما هو مبدأ الإنسان ومصيره ؟ وأعني بذلك كيف بـــدأ العالم وإلى مـــا ينتهي ويصير ؟ هل تساعدنا في التوصل إلى الإجابة الصحيحة في هذا الباب أبصارنا وآذاننا ، وهــل تفيدنا حاسة اللمس ، وحاسة الذوق ، وحاسة السمع ، وحاسة الشم في هــذا الصدد فائدة ما ، ولو فرضنا أن هذه الحواس سليمة وقوية .

= مصدر للخطأ هو اليقين الخاطىء بأن الحواس إنما أعطيت لأغراض عملية تكشف لنا حقيقة الأشياء .

ويقول مونتين (Montaigne) : ان علم الإنسان لا يزال ناقصاً ، وإن حواسه مشكوك فيها قابلة للخطأ ، إننا لا نستطيع أن نقول : إن الحواس كشفت لنا الحقيقة ، إن العالم يبدو للحواس مطابقاً لطبيعة هذه الحواس ووضعها ، إن الحواس الظاهرة لا تدرك الأشياء الخارجية إدراكاً كاملاً ولا تستوعب حقيقتها ، إن جل عملها أن ترى طريقة إدراكها لهذه الأشياء ، ونحن في حاجة إلىأن تكون عندنا آلة نعرف بها صدق هذه الحواس وكذبها قبل أن نجزم بصحة هذه الحواس في عمليتها ، وهــذه الآلة كذلك في حاجة إلى آلة أخرى تنقدها وتحكم عليها بالصحة والخطا ، وهلم جرا إلى غير نهاية.

إننا نشاهد أننا لا نستفيد من هذه الحواس سوى وجودنا في مكان معين ، فإن هـــذه القوى كلها تنتهي إلى حد خاص أولاً وآخراً ، ولا تتخطى هـذه الحدود التي رسمتها الفطرة ، إننا لا نستطيع أن نبصر إلا في مساحة معينة ، أمــا ما عداها فيرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير ، وكذلك قوتنا السامعة لا تعمل إلا في نطاق محدود معلوم، أما قوى الحس الأخرى فهي أضعف وأقصر مدى من القوتين السابقتين .

هل هناك حياة بعد هذه الحياة ، أم لا ؟ هـــذا السؤال لا يدخل في اختصاص هذه الحواس وفي نطاقها ، فهي لا تستطيع أن ترد عليه بإثبات أو نفي، وذلك لأن هذه الحواس تابعة لهذه الحياة ، داخلة ومحدودة في نطاقها ، فهي لا تستطيع أن تحكم على شيء خارج هـذا النطاق سلباً أو إيجاباً ، أو تقوم بتصديق أو تكذيب شيء، وجل ما يمكن عن طريقها هو إنكار وجودها الحسّي لا وجودها المطلق ، فهل هما اسمان لشيء واحد، والذي ليس محسوساً لا يكون موجوداً ؟ ، وهل نحن في حياتنا اليومية نعمل بهـذا المبدأ ، فالذي لا نحسه لا نؤمن بوجوده ؟ كلا ! لأن الأمر إذا كان كذلك لن يوجد أي فرق بين الإنسان والحيوان ، وينهار بناء العلم والمدنية انهياراً كلياً ، فإن كنا لا نستطيع أن ندرك الحيــاة الآخرة بحواسنا فكيف ندرك تفاصيلها وأحوالها الأخرى الكثيرة ؟

وكذلك إذا وجهنا إلى الحواس السؤال عن هذا الكون من

حيث المجموع مـا هو ؟ نجدها عاجزة عن الإجابة عليه ، إن الحواس تتمكن من اخبارنا بأجزاء هذا الكون و كسوره ، ولا شك أن لهـذا الكون مئات من الكسور والأجزاء تدركها الحواس ولا نزال ندركها بحواسنا أيضاً ، ولكن هـل تستطيع حواسنا أن تكشف لنا عن الرابطة التي تربط بينهذه الوحدات الكثيرة المتناثرة ، فتجعل منها وحدة متناسقة متزنة ، كما أنهـا تكشف لنا السبب الحقيقي لهـذا الترابط والاتزان والمركز الأصيل لهذا العالم ، ذلك الذي يكتسب منه هـذا العالم الحياة والقوة والنور ، والإرتباط بين العناصر المتناقضة ، والتنظيم بين الأجزاء المتفرقة ، وهكذا يمكن أن نكسب جانباً من العـلم بقوانين الطبيعة عنطريق حواسنا لأننا نشاهد كثيراً من نتائجها وآثارها ، ونحس بها، وكثير منها ما نعلمه بالبداهة ، اننا نجرب كل يوم أن النار تحرق ، وأن المـاء يروي الغليل ، والسم يقتل الإنسان ، أمـا في مجال الأخلاق فليس عندنا من التجارب والمشاهدات ما نستطيع بها أن نقطع بنتائج الأعمال والأخلاق وخواصها ، ونصل بها إلى علم يقيني، كما كان شأننا مع النار والماء والسم والدواء في دائرة المحسوسات ، فنعرف أن الظلم مرتعـه وخيم، وأن الكذب والخيانة والجنايات الخلقية تجرّ على صاحبها الوبال ، وأنها أخلاق ذميمة لأن ذلك لا يدرك بالحواس ، ان ذلك يحتاج إلى وجدان خلقي أو إيمان ديني ، والشعور الذي يحصل لنا منه يختلف عنالشعور بوهج النار وباحتراق اليد وألمها.

وكذلك فيما يتصل بالإنسان ، فإنه يتراءى لنا حرّاً طليقاً حبله على غاربه ، يبدو غير مسؤول أمام أي محكمة أو حكومة غير إنسانية ، لا فرق بينه وبين السوائم وسائر الحيوانات ، غير أنه ناطق ، أو أنه حيوان راق ، ليست له غاية أسمى من أن يحقق شهواته البهيمية بذكائه الإنساني ، ويمعن في نهب اللذات بكل ما يملك من وسائل .

هذا هو العمل الطبيعي لحواسنا الظاهرة وتلك هي نتائجها الطبيعية ، ولا أتحدث الآن عن مصير البناء الذي يقوم على الاعتماد على هذه الحواس وحدها ، وعن مدى الضعف في بنيانه والإعوجاج في جدرانه ، إذا قام هذا البناء الحضاري على هذه المحسوسات فقط .

العقل :

ان الشيء الوحيد الذي يقف حداً فاصلاً بين الإنسان والحيوان هو العقل .

وجل هذه القضايا التي تحدثنا عنها هي القضايا الإنسانية التي تؤثر في مصيره لذلك نرجع إلى العقل الإنساني ، ونلاحظ هل نستطيع أن نحل لغزة الحياة الإنسانية والكون عن طريقه ؟ إننا لو نقدنا العقل نقداً عقلياً جريئاً، مجرّدين عن سيطرة العقل على العقل، نرى أن العقل وحده عاجز في أداء وظيفته الطبيعية بل هو مضطر إلى الاستعانة بأشياء هي أقل منه قيمة ، ففي

إدراك ما لم يدركه العقل من قبل، يحتاج إلى استخدام المعلومات التي حصلت له مسبقاً، ولا تكون هذه المقدمات إلا المحسوسات فلو حللت المعقولات كلها تحليلاً دقيقاً، وسمعت قصة رحلة العقل الطريفة والطويلة المـدى ، عرفت أن وسيلة العقل في اكتشاف العوالم الجدد والغوص في البحار المجهولة، إنما هي هذه المحسوسات التي تبدو تافهـة حقيرة ، والمعلومات البدائية التي لولاها ولولا ترتيبها ترتيباً خاصاً ، لما وصل العقل إلى هذه النتائج الخطيرة ذات القيمة الكبيرة ، فحيث تشلُّ الحواس البشرية ، وحيث لا تكون لدى الإنسان ذخيرة من معلومات ، وإذا كان في أمر على جهل تام بمباديه، فهنالك يعجز عقله عن شق الطريق إلى الأمام، والوصول إلى نتيجة في هـــذا الموضوع كما يعجز أحدنا عن أن يعبر البحر من غير سفينة ، وأن يطير في الجو من غير طائرة .

فإن شئت جربت ولا تخطئك التجربة، هب أن رجلاً ذكياً فطناً ليست له معرفة بمبادىء العلوم الرياضية الأولية ، حتى أنه لا يعرف العدد ، لا يستطيع مثل هذا الرجل أن يحل معضلة من المعضلات الرياضية، ولو كان على جانب كبير من الذكاء والألمعية كذلك من لم يكن عنده معرفة بالأصول الموضوعة في عـــلم الأقليدس لن يسعه أن يثبت شكلاً من الأشكال ، ولو كان هذا الرجل على قمّة من الذكاء والفطانة ، كذلك إذا كان الرجـــل يجهل حروف لغة من اللغات وخطها ، لم يستطع أن يقرأ سطراً من السطور التي كتبت في هذه اللغة ، ولو صبّ ذكاءه وأمعن

في القياس ، فالذي لا يعرف مفردات لغة لا يستطيع أن يفهم عبارة من عبارات هذه اللغة بمجرد ذكائه أو بقوة قياسه ، وعلى ذلك تقاس مبادىء كل فن وعلم .

فلنرجع الآن إلى التساؤلات السالفة الذكر ، انها ذات الصلة الوثيقة بما بعد الطبيعة أو بعالم الغيب على تعبير الديانات وأهلها، فهل عندنا معلومات وتجارب حول قضية من هذه القضايا كبداية هذا العالم ونهايته ، وكالحياة بعد الموت ، وهذا الكون وخالقه ومدبّره ، وهل عندنا معلومات عن ذاته وصفاته ، وغاية الخلق والضوابط الخلقية ، ومركز الإنسان ومكانته ، أي قضية من هـــذه القضايا نملك فيها شيئاً من المعلومات الأولية والتجارب العملية أو نملك فيها مبادىء نتوصل بها إلى نهايات ونتائج ؟

يجب أن يكون موقف العقل من هـــذه القضايا كلها أن يسكت سكوت المحايد ، إذ لا يسعه أن يثبت هـــذه المسائل بقوته أو يأتي لها بشرح ، كما لا حق له قانونياً أن يتناولها بالانكار من أجل عجزه عن اثباتها وتقريرها ، كالأعمى لا يسوغ له أن ينكر مشاهدات وتجارب رجل بصير على أساس عدم أبصاره لها ، فلا يخوّل له عاقل هذا الحق ، وأكثر ما يستطيع أن يفعل هو أن ينكر مشاهداته الشخصية ، كذلك ليس للأعمى حق في أن يتناول مشاهدات البصير بالشرح والتفصيل ، فإنه لا سبيل له إلى ذلك لعماه ، وليس في استطاعته إذ أنه لا يدركها إدراكاً مـــا ، لكن الفطرة الإنسانية غير قانعة ، وطبيعتها الفحص

والتجسّس ومحاولة إدراك ما لم تدركه ، ولذلك فإنها بدأت بالتجسس في هــــذه المسائل خاضعة لطبيعتها ، والعامل القوي الذي حرّضها على عملها هذا هو إعجاب أدعياء العقل بعقولهم ، فأجابت عليها بعقلها وفهمها وقياسها ، وعينت لها تفاصيلها ، وذلك القياس والتقعير هو الذي يسمى بالفلسفة .

الفلسفة :

وسوف لا يكون أي اكتشاف علمي لأي طالب متمتع بالفطرة السليمة في تاريخ العلم الإنساني كله أبعث على الغرابة من اكتشاف أن الفلسفة التي تدعي أنها مؤسسة على العقـــل والاستدلال ، وعلى الأصول المنطقية ، استمرت نحو ألفي سنة وخمس مائة [1] في البحث عن قضايا لم تكن لديها أي معلومات عنها ، حتى عن مبادئها الأولية ، وظل النوابغ والأذكياء تائهين إلى هذه المدة الطويلة وراء غاية لم تكن عندهم من معالمها شيء ، انهم بحثوا عن ذات الله وماهيته ، وعن صفاتـــه وحقيقتها ، وعلاقتها بالذات ونسبتها اليها ، وكيفية ظهور هـــذه الصفات وصدور أفعال الله وكيفيتها ، وحدوث العـــالم وقدمه ، وعن الحياة بعد الموت ، وعن قضايا أخرى من الإلهيات ، وما بعد

---

(١) مات سقراط سنة ٣٩٩ ق.م. وكانت قد ظهرت الفلسفة إلى حيز الوجود من قبل .

الطبيعة في ثقة وقطعية ، وتفصيل وتدقيق، مما لا يوجد إلا عند الخبير الكيماوي لدى قيامه بالعمل التحليلي والتجارب الكيماوية.

ومما يبعث على الاستغراب أن الناس لم يتفطنوا لهذا الخطأ في حياة الفلسفة الطويلة ولم ينتبهوا لهذا الخطأ المبدئي بالرغم من جولتهم في ميدان النقد والبحث بكل حرّية ، وكذلك لا توجد في مكتبة الفلسفة الضخمة أسماء فلاسفة رفعوا أصواتهم ضد هذه الطريقة الخاطئة إلا نادراً جداً .

وهـــذا الامام الغزالي الذي كان مطلعاً على حدود العقل اطلاعاً جيداً ما كان ركونه إلى التصوف ومشاهدة الحق إلا بعد أن عرف عجز الفلسفة واندحارها ، انه صرح في مؤلفاته في عدة مواضع بأن علوم الفلسفة في العلوم الإلهية ومسائلها، ظنون وتخمينات لا أساس لها بخلاف علومهم الطبيعية والرياضية، يقول في كتابه « تهافت الفلاسفة » : « انهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين » ، ومن الغريب أن الغزالي لم يتخذ هذا المبدأ أساساً للنقد في نفس هـــذا الكتاب الذي يختص بالرد على آراء الفلاسفة وأفكارهم في الإلهيات بـــل جعل أساس النقد تناقض أقوال الفلاسفة واختلافها وتهافت أدلتهم العقلية .

والذي تفطّن لهذه النكتة في تاريخ الفلسفة العربية تفطّناً جيداً، وقرر في قوة وبلاغة ان بضاعة الفلاسفة في الإلهيات وما وراء الطبيعة بضاعة مزجاة ، هو نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م) الذي لم يكن فيلسوفاً مشهوراً

في علوم ما بعد الطبيعة ، في معنى المصطلحات الفنية الضيقة ، ولكنه كان حكيماً مفطوراً على العمق وسلامة الذوق ، وكان قد رزق عقلاً كبيراً ، لا يقبل ذهنه السليم شيئاً معوجاً مفترضاً، انه تناول هذا الأصل بالنقد في عدة مواضع من مقدمته الشهيرة وكان عارفاً بحدود العقل ، وبالمناسبة نقتطف من مقدمته ما يوضح الموضوع ، يقول رحمه الله :

« ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفّه رأيه في ذلك ، وأعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه ، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقرّوا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية .

فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من

ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وذلك ليس بقادح في العمل ومداركه بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب بينها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الالهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك ، وهو لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود »[1] .

وقد أشار إلى ذلك العالم الكبير شيخ الإسلام عبد الحليم أحمد ابن تيمية (م ٧٢٨) في مؤلفاته في عدة مواضع ، وأبان هذه الحقيقة في بحوثه الكلامية مراراً ، إنه رد على أخطاء المتكلمين أصلاً وفرعاً بكل جرأة وشجاعة[2] .

وأما من كشف الغطاء عن هذا الانخداع النفسي في دور

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص / ٣٢٢ - ٣٢٣ الطبعة البهية المصرية .

(٢) راجع مؤلفاته (نقض المنطق) و (الرد على المنطقيين) وكتاب (النبوءات) على سبيل المثال .

الفلسفة الأخيرة ودحض طلسم الفلسفة الخيالية هذا ، هو العالم الألماني (اميونول كانت Emmanuel Kant) (١٧٢٩ — ١٨٠٤ م) الذي عين حدود العقل ، متجاسراً مصرحاً مبيناً ، كما يقول الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال في كتابه (تجديد الفكر الإسلامي) : « انه هدم أعمال المتنورين وحوّلها إلى كومة من تراب ، وذلك عن طريق كتابه الشهير (نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason) .

فإن رفع أحد خلال هذه القرون المتطاولة صوتاً، لم يصادف من الناس آذاناً صاغية ، وذهب صوته أدراج الرياح ، دون أن تقف الفلسفة في سيرها الحثيث وقفة تفكير أو تأمل ...

الفلسفة الدينية :

من تمام العدل أن ننتقد في هـذه المناسبة تلك الفلسفة التي نشأت بإزاء الفلسفة القديمة للدفاع عن الدين ، ولكنها لم تكن الفلسفة بذاتهـا ، وإن كانت تشبهها في الموضوع ، وفي طريق البحث والاستدلال والفكر الأساسي ،أعني محاولة إثبات ذات الله وصفاته وقضايا ما وراء العقل، عن طريق العقل وهما بالرغم من الخلاف،والصراع بينهما،تلتقيان في الأساس،وأعني بالفلسفة الدينية هذه ، علم الكلام ، ذلك الذي حلل ودقق هذه المسائل الالهية وقضايا ما بعد الطبيعة، مثل الفلسفة وأتت بتدقيقات وتقعيرات كانت سمة الفلسفة اليونانية وشعارها ، وإن كان كل منها يختلف

عن صاحبه في النتائج التي توصل إليها والغايات التي توخاها .

ومن الغريب الطريف أن هذه الفلسفة الدينية عندما برزت لمحاربة هذه الفلسفة والهجوم عليها ، بنفس الأسلحة ، ردّ بعض الفلاسفة وقتذاك هذا الهجوم بسلاح كان من المتوقـع المعقول أن يستخدمه علماء الكلام وعلم التوحيد ، وكان أمضى سلاح في الحقيقة في الهجوم على الفلسفة اليونانية ،ولعل علماء الكلام ذهلوا عنه في المعركة الكلامية التي خاضوها ، وأعني به تحديد العقل الانساني ونقد وسائل العلم ، ومن العجب العجاب أن المتكلمين ما تنبّهوا لهذا السلاح على الرغم من استخدام الفلاسفة له ،ولجوئهم إليه ، وما زال الفريقان آخذين بتلابيب بعضهم البعض ، إلى قرون طويلة باحثين في المسائل والبحوث الفروعية بصرف النظر عن هذا البحث المبدئي .

على كل فإن ارتفاع هذا الصوت على لسان الفلسفة مهما كان خافتاً ومتأخراً من أوانه ، لم يكن خالياً من فائدة ، ولقد صنف الإمام الغزالي كتاباً سمّاه (تهافت الفلاسفة) كرد على الفلسفة بعدما تشبع من الفلسفة وثارت في نفسه شكوك منها ، وقد أثار هذا الكتاب قلقاً في الأوساط الفلسفية ، إن القاضي ابن رشد الأندلسي الذي كانت وفاته بعـد الغزالي بتسعين سنة ، والذي كان يعتبر من كبار المحامين للفلسفة اليونانية ،ومن كبار المتحمسين لفلسفة أرسطو ، ردّ على الغزالي بكتاب أسماه (تهافت التهافت) مدافعاً عن جماعته ، إنه يقول في هـذا الكتاب ، محتجاً ضدّ

بحوث الغزالي الفلسفية :

« هذا كله عندي تعدّ على الشريعة ، وفحص عما لم تأمر به الشريعة ، لكون قوى البشر مقصرة عن هذا ، وذلك أن ليس كل ما سكت عنه الشرع من العلوم يجب أن يفحص عنه ويصرح للجمهور بما أدى إليه النظر أنه من عقائد الشرع ، فإنه يتولّد عن مثل هذا التخليط العظيم ، فينبغي أن يمسك عن هذه المعاني كل ما سكت عنه الشرع ، ويعرف الجمهور أن عقول الناس مقصرة عن الخوض في هذه الأشياء »[1] .

أما الكتاب الذي صنفه في الرد على المتكلمين باسم «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » فقد أثبت فيه قوة الاستدلال القرآني وتفوقه أزاء أسلوب الاستدلال الكلامي بقطعية،ويعتبر نموذجاً جيداً لسلامة فهمه ، انه أبان فيه في عدة مواضع عجز الجمهور عن إدراك هذه الأمور والمسائل ، إنني أوافق رأيه هذا كلياً ، بأن قوى البشر وعقولهم مقصرة عن إدراك هذه المسائل والبحث عنها والتأمل فيها ، ولكنني لا أعتقد الفلاسفة إلا بشراً وما كان أفلاطون ، وأرسطو ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد نفسه ، إلا أفراداً من النوع البشري فيما أعتقد ، فكانوا كسائر أفراد الجمهور مكلفين بأن يعرفوا قدرهم ، ويؤمنوا بأن عقولهم كعقول سائر الناس مقصرة عن الخوض في هذه الحقائق

---

(١) تهافت التهافت ص/ ١١٠ .

التي لم يرزقوا وسائل الاقتناع بها ، والاحتواء عليها ، ولم يملكوا من المعلومات الأولية والمواد والمقدمات ما يتوصلون بترتيبها إلى النتائج القطعية والمعرفة الصحيحة .

وكانت طبقـة المعتزلة أكثر تنوراً وأخضع للعقل من بين هؤلاء الفلاسفة الدينيين الذين قاسوا الله على الانسان ، والآخرة على الدنيا ، ثم بحثوا عنها من حيث الأحكام الانسانية وقوانين هذا العالم ، بغاية من الجرأة والحرية ، وبصرف النظر عن حدود العقل تماماً ، ولعل هذا الضعف مرافق للمرحلة البدائية للعقلانية (عندما يكون العقل في دور الطفولة) ، إن عـــالماً معاصراً ومؤرخاً كبيراً قد ظل معجباً بالمعتزلة معترفاً بخدماتهم العلمية يحدث عن ضعفهم هـــذا بإنصاف وصراحة ، يقول الدكتور أحمد أمين :

« ولعل نقطة الضعف فيهم أنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، أعني في قياس الله على الانسان ، وإخضاع الله تعالى لقوانين هذا العالم ، فقد ألزموا الله – مثلاً – بالعدل كما يتصوره الانسان وكما هو نظام دنيوي ، وفاتهم أن معنى العدل – حتى في الدنيا – معنى نسبي يتغير تصوره بتغير الزمان ، وأن ما كان عدلاً في القرون الوسطى يعد ظلماً الآن ، فكيف إذا انتقلنا من عالم الدنيـــا إلى عالم الله – وكذلك الشأن في قولهم في الحسن والقبح، والصلاح والأصلح – إنا نرى أن الانسان إذا ضاق نظره

حكم على الأشياء حكماً ، فإذا اتسع نظره تغير حكمه »[1] .

« وكذلك قولهم في أن صفات الله هي عين الله أو غير الله ، كل براهينهم مبنية على قياس الغائب على الشاهد، ولكن الشبه معدوم ، وقد فرضوا أن العينية والغيرية ، والزمانية والمكانية ، والسببية والمسببية ، ونحوها قوانين لازمة لكل موجود ، وهذا - في نظري - خطأ محض ، فهي قوانين انسانية ، وإن تسامحنا قليلاً قلنا انها قوانين عالمنا هذا ، لسنا نستطيع القول بأنها تنطبق على غير عالمنا أو لا تنطبق ، فإصدار حكمنا على الله على اعتقاد أنها قوانين شاملة للانسان ، والله جرأة لا يرتضيها العقل الذي يعرف قدره ولا يعدو طوره ، وليس هذا عيب المعتزلة وحدهم بل هو عيب من أتى بعدهم من علماء الكلام كذلك »[2] .

الاشراق :

بإزاء الحركة (العقلانية والفلسفة) حركة قديمة أخرى وهي الاشراق والروحانية ، وكانت مصر والهند مركزاً كبيراً لهـذه الحركة في الزمن القديم ، ونالت هذه الحركة قبولاً في اليونان والروم ، بتأثير الديانات الشرقية واختلاط المصريين ، كرد فعل طبيعي للعقلية المتجاوزة عن الحد ، ولكن مركزها

---

(١) ضحى الاسلام ص / ٦٩ ، ج / ٣ (المعتزلة) .

(٢) أيضاً ص / ٧٠ .

الكبير الذي ازدهرت فيه ، هي (الاسكندرية) التي كانت ملتقى العقلية الشرقية والغربيـة والديانات ، وهي كانت في مصر نفسها .

والمبدأ الأساسي لهـذه الحركة ولهذا النظام أن الحواس والعقل ، والعلم ، والقياس والاستقراء والبرهان والاستدلال ، والنقد والتحليل ، لا يفيد شيء منها في معرفة الحق واليقين في قليـل أو كثير ، بل يقف حاجزاً منيعاً ، وحجاباً صفيقاً في العثور عليه ، ويجني على صاحبه ، ولا بد من المشاهدة لحصول الحقيقة على وجه اليقين ، ولا تمكن هـذه المشاهدة ، إلا بتنبيه حاسة داخلية من نور الباطن وتزكية النفس ، الحاسة التي تدرك الروحانية ومـا وراء الطبيعيات ، كما تدرك العيون الأشياء الظاهرة ، ولا تنتبه هذه الحاسة إلا إذا قضى على المادية وأميتت الحواس الظاهرة ، ولا يمكن تحصيل الحقائق إلا بهذا العقل الخالص الصميم (حكمة الاشراق) وبهذا النور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولد بالمجاهدات ، وإماتة النفس ، والفكر والمراقبة .

والحقيقة أن كلاً من الفلسفة والاشراق يتجهان اتجاهاً واحداً وتسيطر عليهما روح واحدة ، فكما أن الفلسفة وعلم الكلام تجتهدان لمعرفة الحقيقة ، كذلك يعتمد أهل الاشراق على قواهم الباطنة ومجاهداتهم الداخلية ،فالحقيقة أن غاية الفريقين(الفلسفة والاشراق) واحدة ، وإن تعددت الطرق ، فأحدهمـا يريد

الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التحلق في الجو ، أو عن طريق خفي من سرداب ، ولا شك في أن ما وراء المادة عالماً آخر لا تدركه الحواس الظاهرة ، وكما أن عند الانسان قوة باطنية وحاسة داخلية لو أثارها الانسان وربّاها لاستطاع أن يدرك كثيراً من عجائب هذا الكون وموجوداته التي لا يمكن إدراكها بحاسة من الحواس الظاهرة .

ولكن ما هو المحصول ؟ سوى إثبات حاسة باطنية غير هذه الحواس الظاهرة، وإثبات عالم لا يمكن إدراك حقائقه وأسراره بالحواس الخمس .

وأقول إن وجود هذه الحاسة الزائدة أمر لا شك فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواس أخرى كهذه،كما يصح أن تكون هناك عوالم أخرى غير هذا العالم تستلزم لإدراكها قوى تليق بها وتناسبها .

وعلى كل حال فإنها حاسة انسانية ، ضعيفة محدودة ، مثل الحواس الأخرى،قابلة للخطأ والتأثر والخضوع للعوامل الخارجية شأن سائر القوى الانسانية ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هـــذه الحاسة ليست محدودة ولا قابلة للإخطاء ، ولا تتعرض محسوساتها ومشاهداتها للغلط والانخداع والغرور بالنفس.

ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارض ولا تناقض، ولم يخالجها اضطراب أو امكان للخطأ ، ولم تتورط في مزالق

وأغاليط في القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع .

ولكن بالعكس من ذلك نرى أن في محسوسات هذه الحاسة وتحقيق هذا العالم تعارضاً واختلافاً أكثر مما يقع في محسوسات الحواس الظاهرة، وفي علوم أهل الكشف والاشراق من التناقض ما لا نظير له إلا في الفلسفة فيما أظن .

خذوا الاشراقية الجديدة مثلاً ، فإن في عقائد رائديها وأعمالهم خلافاً شديداً، إن مؤسس الاشراقية الجديدة (فلاطينس Plotinus) لا يعترف بنظام عصره الديني والعبادات، بل انه فيلسوف حر لا يؤمن إلا بالتفكير والمراقبة ، ولكن تلميذه النجيب (بارفري Porphyry) زاهد متقشف وصوفي .

كان فلاطينس يعتقد أن الروح الانسانية تنتقل إلى قالب الحيوانات ، ولكن (بارفري) منكر لذلك ، والإمام الثالث الأكبر لهـــذا الموضوع هو براكلس (Proclus) كان خاضعاً لتقاليد مصر الدينية وعاداتها جميعاً، وكان يعبد الشمس في النهار ثلاث مرات، أما دينه الذي كان يدين به فكان مزيجاً لمعتقدات مختلفة ومذاهب متعددة ، وكل هؤلاء كانوا من أهل المشاهدات واليقين .

ثم هذه الاشراقية الجديدة التي كانت منافسة للمسيحية بقيادة بارفري ساعدت (جولين Julian) في عصره في حركة إحياء الوثنية الرومية والجاهلية (Paganism)وأيدت بحماس الوثنية

والجـــاهلية المشركة تأييداً كبيراً [1] ، نور الاشراقيين وقوة باطنهم ، لم يمنعهم عن هذا العمل القبيح ، بل ربطت الاشراقية الجديدة مصيرها بسفينة هذه الجاهلية الغارقة ، كما صرّح بذلك محاضر « دائرة المعارف للدين والأخلاق » ويقرر هـذه الحقيقة فيلسوف هندي معاصر هو الدكتور رادها كرشنن Radhakr- ishnan) مؤلف كتب كثيرة في الفلسفة الهندية ، ومحاضر في جامعة (كامبرج Cambridge) الانجليزية ورئيس الجمهورية الهنـــدية سابقاً ، فيضرب الأمثال لوقوع الخلاف الجوهري في تأملات الاشراقيين والروحانيين القدمـــاء في الشرق والغرب فيقول :

« كما أن نتائج الكشف والتأمل الاشراقي في الشرق مثل (أوبنشد) و (بهكوت كيتا) و (شنكرا) و (رام نج) و (رام كرشنن) و (البوذية) وكشوف الشيخ جلال الدين الرومي ، ومشاهداته يختلف بعضها عن بعض ، كذلك يوجد الخلاف في الغرب في فكر (أفلاطون Plotinus) و (بال Paul)و(براكلس Proclus) و(تاولر Tauler)و(فلاطينس Plotinus) و (اكارت Eckharat) ، وليس هـذا الخلاف بسبب الجو أو باعتبار الأحوال الجغرافية ، بل إن اشراقي جيل

(١) موسوعة الدين والأخلاق (Neo - Plationism)

واحد وثقافة واحدة يختلفون في الاتجاهات والتقاليد »[1] .

ولا بد من التصريح بحقيقة أن الكشف والاشراق كانا قد نالا أهمية واعتباراً كبيراً بين الصوفية والمسلمين، حتى أنك لتجد فيهم اتجاهات ومحاولات لمشاهــدة الحق واليقين عن طريق الكشف، على أن الوسيلة لذلك لم تكن ولا تكون إلا العلم القطعي الذي جاءنا عن طريق محمد ﷺ ، القائم على الوحي والتنزيل ، وكان ذلك العلم بمتناول يد الصوفية المسلمين، في كل وقت ومكان، إذ كان الاشراقيون في اليونان والهند بمعزل عنه ولم يدركوا ذلك النور الذي أشرق من جزيرة العرب .

وقد جاء في رسالة الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي (م ١٢٤٠ م — ٦٣٨ هـ) التي وجههــا إلى الإمام فخر الدين الرازي ، وقد جاء في هذه الرسالة :

« ويجل الله سبحانه أن يعرفه العقل بنظره وفكره فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله من حيث المشاهدة » .

ويستمر في كلامه ثم يقول : « فارفع الهمة في أن لا تأخذ علماً ، إلا منحه سبحانه على الكشف ، فإن عند المحققين أن لا

---

(١) الديانات الشرقية والفكر الغربي

Eastern Religions And Western Thought. Oxford University Press, London (1940) P. 64,.

فاعل إلا الله ، فإذن لا يأخذون إلا عن الله ، لكن كشفاً لا عقلا ، وما فاز أهل الهمة إلا بالوصول إلى عين اليقين انفة بقاء مع علم اليقين »[1] .

وكذلك المرحلة التي اطمأن فيها قلب الإمام الغزالي في رحلة البحث عن الحق واليقين ، هي أن مشاهدة الحقيقة وعين اليقين لا يحصلان إلا بطريق الاشراق وصفاء النفس كما صرح بذلك في كتابه (المنقذ من الضلال) ، يقول :

« وأعلم أن هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن ، ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الأبصار ، وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار »[2] .

إن أهل الكشف والاشراق من المسلمين يحتمل وقوع الخطأ في كشفهم ومشاهداتهم أيضاً ، ووجود الخلاف والتعارض في نتائج تأملاتهم ومجاهداتهم النفسية ، فإن واحداً منهم يعارض آخر ويثبت أن كشفه بعيد عن الحقيقة غير مطابق للأصل ، وقد يحمله على السكر وغلبة الحال ، وقد يقول إن هذه المرحلة مؤقتة بدائية يمر بها السالك ويتقدمها ، وهناك تبدو له مشاهدات وكشوف خلاف ما رآه في المرحلة الأولى .

---

(١) ثلاث رسائل .
(٢) المنقذ من الضلال .

لا يخفى على أهل العلم ما للشيخ محي الدين بن عربي من مكانة عليا في الكشف والاشراق. يقول عنه امام آخر صاحب الكشف والمكانة العليا في الربانية الشيخ الامام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (١٠٣٤ هـ – ١٦٢٦ م) المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني ، في إحدى رسائله :

« من أعجب الأمور أن الشيخ محي الدين بن عربي يبدو من المقبولين عند الله ، ولكن أكثر علومه التي جانب فيها مذهب أهل الحق (أتباع الكتاب والسنّة) يتجلى فيها الخطأ والبعد عن الصواب »[1] .

ويقول الشيخ في مكان آخر : « ان أكثر معارفه الكشفية التي خالفت علوم أهل السنّة بعيدة عن الصواب »[2] .

يعرف الجميع الخلاف المشهور بين الشيخ محي الدين بن عربي والشيخ أحمد السرهندي المجدد في مسألة وحدة الوجود، وتحقيق كل واحد منهما يقوم على المشاهدة الشخصية والكشف ، وقد قال الشيخ المجدد عن شيخه الكبير عبد الباقي الدهلوي وعن نفسه : « بأنهما كانا في مقام استولت عليهما فيه فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية ، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسما بهما إلى

(١) مجموع رسائل ج / ١ ، رقم / ٢٦٦ .
(٢) أيضاً .

مقام أسمى من هـذا المقام رجعا عنها »، يقول الشيخ المجدد : « وان كان شيخي الشيخ الكبير عبد البـاقي البدخشي الدهلوي قائمـاً على نظرية وحدة الوجود كما تظهر من رسائله، ولكن الله سبحانه وتعالى قـد رقاه من هذا المقام البدائي، وأخرجه من مضيق هذه المعرفة، إلى جادة واسعة وإلى الصراط المستقيم »[1].

ويقول أحد تلاميذه وخواصه الشيخ عبد الحق[2] أن الشيخ عبد الباقي البدخشي الدهلوي قـال قبل وفاته بأسبوع : « انني عرفت بعين اليقين أن وحدة الوجود طريق ضيق، أما الآن فحصل لي يقين آخر وهو أن الطريق غـير هذا »، ويقول في نفس هذه الرسالة : « وقد قضيتُ مدة في حضرته معتقداً لهذا المشرب كنت على نظرية وحدة الوجود لأجل سيدي، وقـد لاحت لي مقدمات كشفية في تأييد هذا الطريق، ولكن عناية الله جل وعلا أخذت بيدي وشرفتني بعـده بمقام هو أسمى من هذا المقام وطور هو وراء الطور »[3].

---

(١) يعني عقيدة التوحيد التي جـاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي تقوم على الفرق بين الخالق والمخلوق والعبد والمعبود.

(٢) لعل المراد بـه العلامة الشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي أحد كبار ناشري علم الحديث وحامل لوائه في الهند مات سنة ١٠٥٢هـ.

(٣) مجموع رسائل ج/ ١، مكتوب رقم/ ٤٣.

انه يتحدث في إحدى رسائله رداً على سؤال عما إذا كان يمكن وجود الخطأ في العقل والعلوم الروحانية ؟ فيقول :

« سؤال : ان العقل في حدود ذاته ، وإن كان ناقصاً في فهم أسرار الأحكام الإلهية ، ولكنه لماذا يستطيع بعد التزكية والتصفية أن يقترب إلى الله تعالى بطريق مباشر بحيث يتلقى الأحكام الإلهية من الله تبارك وتعالى من غير حاجة إلى نبي يبعث ، ويتلقى الوحي بواسطة الملك » .

وهذا السؤال تعبير كامل عن مذهب الاشراق ، فلنقرأ جوابه على لسان رجل قد سلك الطريقين ، وعنده تجربة عملية بهذه « التصفية » و « التزكية » ، يقول رحمه الله مجيباً عن ذلك:

« مهما اقترب العقل واتصل بالله تعالى إلا أن علاقته بهذا الجسم المادي لا تزول بتاتاً ولا يستطيع أن يتجرد عنه تماماً ، فلا بدّ من حدوث الأوهام والشبهات بصفة دائمة ، ولا تفارقه القوة المتخيلة والشهوانية والغضبية بأي حال ، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفة مستمرة ، أضف إلى ذلك صفات السهو والنسيان والخطأ التي هي من لوازم النوع البشري ، لا تنفك عنه أبداً .

ولذلك فإن العقل ليس موضع ثقة في قضية الأحكام الإلهية التي إذا تلقاها ، لم تكن بنجوة عن موضع الشك والارتياب ، ولا تفارقه شائبة النسيان ومظنة الخطأ بخلاف الملك الذي هو

مصون عن جميع هذه الصفات البشرية وبعيد عن هذه الرذائل ، فلا بـد من أن يكون محفوظاً عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان .

وفي بعض الأحيان يبدو أن العلوم التي أخـــذت بالتلقي الروحاني، تنضم اليهـــا – وهي في طريقها إلى القوى والحواس الباطنية – أمور لا نصيب لهـــا من الواقعية كانت من القضايا المسلمة عند هـــذا الرجل ، وكان مصدرها الوهم والخيال (أو العقائـد الموروثة والتقاليد الشائعة في أمته أو مجتمعه) وتمتزج هذه الرواسب بهذه العلوم التي تلقاها عن طريق الروح أو صفاء النفس أو المجاهدة من غير أن يكون لإرادته دخل في هذا ، أو أن يكون له شعور بـه امتزاجاً كلياً ، لا يستطيع معه أن يميز بين هذا الأصل وتلك الظلال ، وقد يكشف الله هذا الخلط وقد لا يكشف ، فلا شك أن تلك العلوم الصحيحة تصبح مشكوكاً فيها بعيدة عن الصواب غير جديرة بالثقة والاعتماد لهذا الاختلاط بين الحق والباطل ، وامتزاج الخالص بالزائف » .

وفي الحقيقة – كما قرر الشيخ المجدد – أيمـــا قوة من قوى الإنسان العقلية أو الروحانية لا تتجرد عن التأثيرات الخارجية ومفعول الحواس كلياً ، بـــل لا بد من أن تتأثر مشاهداته وتحقيقاته ببيئته وأفكاره وعقائده ، ومقدماته المسلمة عنده أو عند جماعته وقومه .

ولذلك كان الاشراقيون ، الاغريق والمصريون يرون في

كشفهم ومشاهداتهم تأييداً لكثير من الأوهام المصرية واليونانية وأخيلتهم، كما كان الاشراقيون المسلمون تتراءى لهم المفروضات التي افترضها فلاسفة اليونان، حقائق ثابتة وموجودات مسلمة فكانوا يشاهدون في تأملاتهم «العقول» التي تدور حولها الفلسفة اليونانية، وقد تتفق لهم المحادثة مع «العقل الأول» أو مصافحته في بعض الأحيان [1].

ثم لو سلمنا قوة هذه الحاسة كلياً، فهنالك نتسائل، ما هي محسوسات هذه الحاسة وما هي الأشياء التي ندركها عن طريقها؟ ولا شيء غير أن يتمتع الإنسان بأسرار عالم الأرواح وعجائبه ويطير في أجوائه الواسعة بحرية، وينكشف عالم بأجمعه أمام حاسة جديدة من حواسه ويرى صوراً وألواناً من ذلك العالم، يقيس بها قدرة الله، وسعة هذا الكون، ولكن كل ذلك لهو ولعب، كما يقول الشيخ المجدد:

«لم تكن الصور الحسية وأنوارها قليلة حتى يتمنى أحد صوراً غيبية وأنوارها بوسيلة الرياضيات والمجاهدات، إذ كانت هذه الصور وتلك الأنوار كلتاهما من مخلوقات الله نموذجاً لصنعته، ان لنور الشمس والقمر الذي يوجد في عالم الشهود هذا، رجاحة

---

(١) كما حكى ذلك الشيخ محي الدين بن عربي في بعض مكشوفاته وفتوحاته، مع انه تحقق أن لا وجود لهذه «العقول» إلا في ذكاء فلاسفة اليونان واسترسالهم في الخيال والافتراض.

بوجوه مختلفة على تلك الأنوار التي يرونها في عالم المثال، ولكن بما أن هذه الرؤية دائمـة يشارك فيها كل من العامة والخاصة لا تنال قدراً وأهمية ، لذلك يحن كثير من أهل الطموح إلى رؤية الأنوار الغيبية كما قال بعض الشعراء ما معناه، « كل نهر يمر ببابك يبدو حقيراً » .

فكيف تنحل من هذا الاشراق والنور الباطني والمكاشفات والمشاهدات تلك الأسئلة البدائية الأساسية التي عجزت عـــن الإجابة عنها الحواس والعقل والفلسفة ؟ ان العلم التفصيلي لمشيئة الخالق ، والنظام المعين للأخلاق والأعمال ، وراء إدراكهم ، كما انه بعيد عن متناول العقل والفلسفة .

ومن أجل ذلك مـــا زال الاشراقيون مرتبطين في عصورهم بنظام خلقي أو روحـــاني من الأنظمة الموجودة في عصرهم ، وما استطاعوا أن يبدعوا نظاماً دينياً إيجابياً أو سلبياً .

ان مكانة الشيخ ابن عربي في الكشف والاشراق معروفـة ومسلـّمة عند المتصوفين ، ولكنه مع ذلك كله كان يتبع مذهب الظاهرية [1] ، ومن المشهور المستفيض أن الشيخ ابن عربي كان متمسكاً بالشريعة المحمدية حريصاً على اتبـاع السنن النبوية يعمل بذلك ويدعو اليه ويوصي به .

---

(١) كان امام هـذا المذهب الامام داود الظاهري (٢٧٠ هـ) وكان لا يرى القياس ويعمل بظاهر الحديث .

وقبل أن أذكر المصدر الأخير لحل هـــذه المسائل بالقطع واليقين ، الذي هو الوحي والكتاب، ووسيلتهما الرسالة والنبوة وأقدم أمامكم صورة لهـذه الحياة التي توجد باتباع النبي والعمل بتعاليمه ويقوم هذا العالم على أساسه ومبادئه ، أريـد أن أذكر تلك المدنيات ونظم الحياة التي قامت على الحسيات والعقليات أو على أفكار الاشراق ونظرياته .

مدنيات العالم الثلاث الهامة ونظم الحياة

المدنيـة الحسية :

من مدنيات العالم القديمة ، والمقبولة جداً عند الانسان ، مدنية يقوم أساسها على الحواس ونتائجها ، وليس للانسان أساس أسهل وأعم من هذا الأساس ، ولا تحليل أسهل من التحليل الذي يقوم على أساس هذه الحواس ، ولا نظام أسهل وقوعاً منه وإشباعاً للنفس من هذا النظام في كل زمان ومكان ، ولا تحتاج هـــذه المدنية إلى عمق ولا رقي عقلي ، ولا إلى إيثار وتضحية ، ولذلك فيها من الجاذبية والاستهواء والفتنة للنفوس ما ليست في مدنية أخرى ، ولم يحز رأي نظام آخر من النجاح والانتصار ما حقق هذا النظام من انتصارات متكررة في تاريخ الحضارة الانسانية .

ولا بد للمدنية التي يقوم أساسها على المحسوسات أن يكون من خصائصها الفطرية ما يلي :

نفي وإنكار واستخفاف بكل ما لا يأتي تحت الحسّ ، ولا

تصدقه الحواس الظاهرة ، وكنتيجة حتمية لهذا المبدأ لا يستتبب الإيمان بذات أو قوة غير مرئية ، مما يتجاوز حدود الحواس ، وإذا لم يكن هنالك إيمان بهذا الوجود أو القوة الغيبية فلا أمل إذاً في وجود الخوف منها أو حسابها في الأعمال والتصرفات ، فإذا وجدت عقيدة عدة آلهة بسبب الشرك والأوهام التي ترافق المدنية الحسية كثيراً فلا تحدث هذه العقيدة أي تأثير على الفكر والأذهان ، ولا على الحياة العملية ، ولا تحدث في النزعة الحسية والاتجاه الحسي في الحيـــاة ، ولا في أساس الأخلاق والأعمال المادي المحض ، اضطراباً أو ضعفاً ، فإن عقيدة تعدد الآلهـة تصطلح مع جميع الأنواع من الأعمـــال والأخلاق والأهواء والنزعات ، وتتجاوب معها فلا يكون بينها وبين هذه صراع أو نضال كأن هذه العقيدة تؤمن بمبدأ (التعايش السلمي) على حد التعبير الحديث ، فلا تقف حاجزة في سبيل ما يريده أصحاب الحول والطول والقوة والسلطة ، من ظلم أو وحشية أو شهوانية جامحة ، كما يدل على ذلك تاريخ الأمم الوثنية والمؤمنة بآلهة كثيرة .

فإذا كانت شهادة الحواس لازمــة لإثبات شيء ، فكيف السبيل إلى الإيمان بأشياء لم تشهد بوجودها الحواس ، والنتيجة المنطقية لهذا الاستدلال الحسي تحتم علينـــا أن ننكر كلياً وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة ، ووجود عالم آخر وراء هذا العالم ، ذلك الذي يستدل على وجوده بدليل آخر غير الحواس ، أو يلزم

للإيمان به إيمان بشيء آخر ، وكنتيجة حتمية لإنكار حيـــاة أخرى بعد هذه الحياة ، تصبح هذه الحياة هي الغاية القصوى ، ويتحرر المرء عن خوف أي محاسبة في المستقبل ، ويتولد في طبيعته انطلاق وفوضى ، لا تؤثر فيها قيود أو قانون مؤقت ، وبما أن طروء الموت على الانسان وحضور وفـاته تختلف عن قضية الحياة بعد الموت (التي أخبر بها الأنبياء وحدهم ، ونطقت بها الصحف السماوية) وهي حادثة متكررة مشهودة كل يوم لا تقبل المراء والجدال، تنبعث — طبعاً — في نفس الانسان دوافع التنعم في هذه الحياة والتمتع بملذاتها ومباهجها وذلك أمر معقول جداً يتفق مع وجهة نظر (المحسوسات) والاستدلال الحسي وترتيب مقدماته .

وفي المرحلة البدائية لهذه المدنية (وأحياناً في عهد النهضة أيضاً) يكون الباعث على العمل ودافعـه ، الأغراض والمنافع الشخصية ، لا الأخلاق المجردة عن الأغراض والفوائد الجماعية ، وعندما تمر هذه المدنية بمراحل النمو بسبب الحياة الاجتماعية ، تتولد في لغتها كلمة (الأخلاق) أيضاً ، ولكن يكون أساسها على فلسفة اللذة للنفس ، فتعني الأخلاق في هـــذه الفلسفة ، الحصول على اللذة وحظوظ النفس ، فإذا قطعت شوطاً آخر انتقلت من الاعتماد على مبدأ اللذة (أو الفلسفة الأبيقورية ، إلى الاعتماد على مبدأ النفعية) فيصبح قوام الأخلاق أن يستفيد بهذا العمل منها أكبر مجموع من الأفراد ، ولكن كثيراً ما يكون

الفكر الحسي والحرص على طلب اللذة ، عاملاً أساسياً لتعيين مقياس النفعية .

والميزة الطبعية الثـانية لهذه المدنية الحسية والمادية (وهي في الواقع تابعة للميزة الاولى) أن تؤثر في هذه المحسوسات أيضاً، العاجل على الآجل ، والانتفاع الحـالي على الانتفاع المؤجل ، إذ هو أقرب الى الحواس، ولأن الحاجة في هذه العملية الى استخدام العقل والقوة الفكرية ، أقل ، ولذلك نرى أن من سمات هـذه المدنية (الحسية المادية) وجميع مظاهر هـذه الحياة وأشكالها السطحية والغرام الزائد بالبريق ، وجمال الظاهر . وتسري في هيكل هذا المجتمع وحياته طبيعة الاستغلال، والتمتع، والاثرة، والانسانية ، والنظر الى كل قضية بالمنظار الشخصي .

وكنتيجة لازمة لهذه الفكرة المادية ، وهذا النوع من الحياة أن هذه المدنية تؤثر المنـافع العاجلة والمصالح الشخصية على المبادىء وعلى القيم الخلقية وعلى العقائد ، وتضحي في سبيلهـا بالمبادىء الكبرى ، وعقـائد أفضل ، وتضحي بأفضل التعاليم الخلقية مقـابل فوائد حقيرة جداً ومصالح تافهة كل حين وآن ، فمعتنقو هذه الفكرة وأصحاب هذه السيرة (من أية ديانة كانوا ومهما بلغ تمسكهم بفرائض هـذا الدين وشعائره) على استعداد دائم وغريب للتعاون مع كل نظام وكل حركة قـائمة مقبولة ، وصلاحية غريبة للانصهار في كل بوتقة ، مثل الشمع الذي يصاغ في أية صورة . إنهم يكوّنون إله لكل نوع من النظام ويحاربون

تحت كل راية ، ويضحون بأنفسهم لكل غاية ، ويقاتلون لها ، إذا كان لهم فيه نفـع شخصي مهما قلّ وتفه ، بل ولو كان مشكوكاً فيه وموهوماً ، وقـــد تجاوزت هذه الفلسفة حدود الذات إلى حدود أمــة وقوم ، فتنشأ الفلسفة القومية التي تؤمن بفائدة الشعب والأمة بصرف النظر عن المبادىء والقيم ، والحق والباطل ، والعدل والظلم ، ولا فرق بـين كلتا الفلسفتين إلا أن الأولى تقوم على تمجيد الذات وعبادتها ودائرتها ضيقة ، والثانية على تمجيد الأمة أو البلاد وعبادتها ، ودائرتها واسعة ، وتكون دعوتها في كلتا الحالتين السير مـع الرياح ، والجري وراء المنافع والأرباح .

وحيث ان الحواس هي المصدر الوحيد للعلم في هـذه المدنية الحسية العلمي ، والحواس كما وضحت سابقـاً لا تشهد للإنسانية غير أنه حيوان ناطق ، فتتولد فيهم طبعاً نزعة المراجعة إلى حياة الحيوان ، فـإذا أرادوا البحث عن الحلقات المفقودة من تاريخه وأحبوا أن يعيّنوا لحياته احكاماً وضوابط اتجهوا إلى الحيوانات (في الغابة) ومعرفة طبائعها ودراسة تاريخها لملأ هذا الفراغ ، واختاروا لحياتـه نظاماً لا يختلف كثيراً في روحه وغاياته عن حياة الحيوان المحضة .

ان إعادتي لذكر المدنية الحسية ووصفها لا يعني أن المدنية الحسية نوع من حياة الغابة التي لا توجد فيها حضارة البلد وثقافتها فإنني أسميها « الحسية » باعتبار روحها ومأخذها ، وأما باعتبار

الحياة الحضرية فهي من أرقى مدنيات العالم ، ولها حظ كبير في أناقة الحياة ، وفي تأمين الراحة في الحيـاة ، وهي أكبر حظاً في الظرافة والترف ، وباعتبار المـادية أكثر تنوعاً ورقياً وأكثر تدقيقاً واختراعاً، لا تماد لها فيها أحياناً المدنية الإلهامية والمدنية «العقلانية» ، ولا غرو ، فإنها ركزت كل قواها على هذا الجانب الوحيد فجاءت فيه بالطبع بأحسن النتائج .

وقد ازدهرت هذه المدنية في العالم أكثر من المدنيات الأخرى كلها ، انهـا جعلت الأرض بصناعتها مخضرة خصبة ، عامرة بالأزهار والرياحين ، وجعلت الحيـاة ربيعاً بالملاهي والملاعب ، انها شقت الجبـال وفجرت منها الأنهار وأنبتت على الحجر الأزهـار وبنت الآثار الشامخة الفخمة والمباني الضخمة الشاهقة ناطحة السماء ، وأتت بعجائب من صنع الانسان وذكائـه توهم كأنها مدنية حكيمة عقلية ، والحق انها سخرت العقـل لمنافعها الحسية المادية .

ان قوم عاد الذين كانوا في قديم الزمان في جزيرة العرب كانوا أكبر ممثلي المدنية الحسية والمادية في عصرهم ، وان مدنيتهم كانت من أرقى المدنيات في ذلك العصر ، وقـد تمثلت فيها أكثر خصائص المدنية الحسية ، ومن ألقى عليهم نظرة عرف أنهم لا يعرفون الله ولا يؤمنون بالآخرة ، انهم كانوا يبنون مباني كبيرة ضخمة عبثاً بغير حاجة ترويحاً لنفوسهم وتفاخراً بـين أبناء جنسهم ، قد نسوا الآخرة ويحسبون أنهم سيخلدون في الدنيا ،

ولا تموتون ، كان يظهر من حروبهم الطاحنة وبطشهم الشديد أنهم لا يؤمنون بقوة أعلى وأجـــل من قوتهم فخاطبهم نبيهم «أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين »[1] .

وخلفهم قوم ثمود وانغمسوا في لذات الدنيا ومتاعها وأخلدوا إلى هذه الحياة واطمأنوا بها ونسوا الدار الآخرة وشغلوا عنها ، ومن رأى اهتمامهم بهذه الحياة وقلة مبالاتهم بما وراءها ، عرف أنهم لا يؤمنون بشيء لا يرى بالأبصار ، لذلك قال لهم نبيهم : « أتتركون فيما ها هنا آمنين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين »[2] .

ان الحسية والمـــادية والخضوع للمظاهر (وأرقى أشكالها الوثنية) رافق أحدهما الآخر في أدوار تاريخها المختلفة، وكثيراً مـــا ظهر الاتجاه الديني للأمم الحسية والمادية في شكل عبادة الأصنام ، والذين تعودوا المحسوسات يصعب عليهم الإيمان بإله لا تدركه الأبصار لأن الصورة الجسمية تلفت الأنظار ، فيخضعون بسرعة لعبادة الأوثان، تسلية لعواطفهم ، ويجعلونها أيضاً حسية كشعب حياتهم الأخرى، كان ابراهيم نشأ في قوم من هذا القبيل وكانت الوثنية قـد بلغت القمة من الرقي كمجالات حياته المادية الأخرى .

---

(١) الشعراء : ١٢٨ – ١٣٠ .
(٢) أيضاً : ١٤٦ .

وقد حكى الله عنهم فقال : « واتل عليهم نبأ ابراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال. أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين »[1] .

وليست نتيجة هذه المادية الجامحة والحسية المطلقة ، والانسياق مع النزعات والأهواء بصرف النظر عن المبادىء والأخلاق، إلا أن تفقد الفطرة البشرية أصالتها ونظافتها وتصبح في زمن قريب مريضة ممسوخة ، وأن يتعطل الوجدان السليم ويشل الحس الخلقي فلا يعمل ولا يؤثر، ويصل الإنسان في ثورته على الفطرة وفي انحرافه وشذوذه ، إلى درجة يفوق فيها ويبزّ حيواناً لا يملك ضميراً ولا ينقاد إلا لغريزته ، وقد ولد نبي الله لوط عليه السلام في أمة هذا شأنها ، وقد بلغت الذروة في الانحطاط الخلقي ، وفي السفالة والرذيلة ، ويخاطبهم لوط عليه السلام فيقول : « أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون »[2] .

---

(١) الشعراء : ٦٩ – ٨٢ .

(٢) أيضاً : ٦٥ – ٦٦ .

وقال أيضاً : «انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر »[1] .

ان طبيعة التمتع باللذات والمنافع وانتهاز الفرص لا تفرق بين ما يجوز وما لا يجوز ، وبين العمل الشرعي وغير الشرعي ، بل انها تؤثر المنفعة الشخصية على الفائدة الاجتماعية ، وتؤثر الفوضى على ما يقتضيه النظام ، مهما تولد من ذلك مفاسد جسدية وويلات اجتماعية والخيانة في التجارة، والتطفيف في الميزان، من أدنى معطيات هذه الفكرة وهذه السيرة ، وكانت هذه الخصلة السيئة عامة في تجار مدين ، وقد جسّ نبيهم شعيب ــ عليه الصلاة والسلام ــ هذا النبض في أمته وضرب على هذا الوتر الحساس فقال :

« وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين »[2] .

وكانت مصر والشام وايران والعراق واليونان مركزاً لهذه المدنية في عهدها ، وقد ظهرت هناك هذه المدنية بخصائصها الفطرية التي تحدثنا عنها .

---

(١) العنكبوت : ٣٩ .
(٢) الشعراء : ١٨١ – ١٨٣ .

وكانت المدنية الرومية نموذجاً مثالياً للمدنية الحسية والمادية وطرازها الأخير وهي التي تجلّت فيها فلسفة الأخلاق والاجتماع الحسية ، وهدف الحياة المادي ، الذي كانت الحياة تدور حوله في أروع أشكالها ، وقد خلّفت روما هذه الأفكار والعلوم والفلسفة والمدنية والحضارة كتراث ورثته أوروبا التي خلّفتها في القرون الوسطى ، وبقيت دعائم الحضارة الرومية ثابتة رغم حروب طاحنة ، وعواصف هوجاء ، وقامت بناية الحضارة الجديدة على هذه الأسس ، يقدم المؤرخ الأوروبي الشهير والأديب الانجليزي الكبير (John William Draper) صورة عن الانحلال الخلقي والاجتماعي عند الروم خلال العهد الذهبي للامبراطورية ، فيقول :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب ، إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدأهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الانسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ،

ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان وغوان عاريات

كاسيات غير متعففات ، تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدركه هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة لأنه بها يقدر الانسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكدّ اليمين ، وإذا غلب الانسان في ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويمين إيرادات الاقطاع ، وان رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة فكان نظام رومة المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهـــد انحطاطها »(١) .

إن العهد الجاهلي العربي « الذي ينتهي في القرن السابع بعد بعثة محمد ﷺ » كان مرآة لهذه الحسية والمادية في نفسيته وأفكاره واجتماعـه ، كانت أذهانهم لا تسيغ عقيدة الآخرة وعقيدة الحياة بعد الموت ، انهم كانوا يعتقدون « أن أساس هذه العقيدة هي الحواس » أن السماء والأرض ، وتقلب الليل والنهار كحجري الرحا يطحنان الانسان كحبة ، وليست هناك قوة غير هذه القوة تقضي على حياتنا .

(١) History of The Conflict BetWeen Religion And Science London,1927 , PP. 31 – 2 .

يذكر القرآن عقيدتهم فيقول : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »[1] .

ويحكي عنهم فيقول : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »[2] .

يحرض شاعر جاهلي (شداخ بن يعمر الكناني) قومه على القتال ضد قبيلة أخرى بهذه الحجة ، ويقول لا تدوم حياتكم ولا حياتهم . فما السبب لهذا الجبن ؟ وإن هـذا الطراز للاستدلال نموذج جيد للنفسية الحسية ، يقول الشاعر :

قـــاتلي القوم يا خزاع ولا
يدخلكم من قتـــالهم فشل
القوم أمثـــالكم لهم شعر
في الرأس لاينتشرون إن قتلوا[3]

والنظرية التي تتولد من إنكار الآخرة كانت موجودة بنفسها في العصر الجاهلي ، انهم كانوا يقولون : الموت حق ، فلماذا نقضي هذه الأيام العديدة من الحياة « التي ليست بعدها حياة أخرى » في الظمأ والحرمان ، والموت بالارتواء أفضل من الموت في الظمأ ، يقول الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد يمثل هذه الفكرة :

---

(١) المؤمنون – ٣٧ .
(٢) الجاثية – ٢٤ .
(٣) ديوان الحماسة ، باب الحماسة .

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى
وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي
كريم يروّي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غداً أينا الصدي

كانت غايته القصوى « الانتفاع باللذة والنعمة » في مثل هذه البيئة الحسية الجاهلية المحضة التي ليست لها غاية أسمى من السمعة والرياء ، وإظهار القوة والشجاعة ، ولا يحلق الذهن الجاهلي أكثر من هذا التحليق ولا يتصور غاية أسمى من هذه الغاية ، يصور الشاعر الجاهلي – الطموح عالي الهمة – عواطفه الحقيقية ، فيقول :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سقي العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنة تحت الخباء المعمّد
وكرّي إذا نادى المضاف مجنباً
كسيد الغضا نبّهته المتورد (١)

---

(١) المعلقات السبع ، معلقة طرفة بن العبد .

وتتولد مع هذه الأخيلة فلسفة جاهلية ، إذ لا يخلو عصر من عصور البداوة والجهـــالة أيضاً من (الفلسفة) مهما بلغت هذه البداوة من الانحطاط والجهل ، وتوجد في هذه الفلسفة سطحية مثل جميع العلوم التي تنشأ وتتكون في العصر ، ويرافقهـــا الاستدلال بالأشياء الظاهرية قياس مع الفارق، وترجيح الموجود على غير الموجود – وقد أبدى الشعراء الجاهليون هذه الفلسفة مع أفكارهم وعواطفهم هذه ، التي لا تخلو في بعض الأحيان من هذا الفكر الجاهلي وهذه الروح الجاهلية ، وهي مشبعة بالفكر الجاهلي والروح الجاهلية كما يقول الشاعر طرفة بن العبد ، الذي سبق ذكره .

إن نتيجة الزهد والكف عن الشهوات و كبح الجماح ،ونتيجة الاسترسال في إشباع الرغبات والانسياق مع دوافع الهوي والشباب ، واحدة ، أنظروا إلى قبر زاهد متق ومن كان بالعكس ، خلع عذاره وطرح الحشمة ولبى داعي الشهوة تراها كومتين من تراب ، مصمدتان من صفائح ، وإن كان يقارن الشاعر هناك بالرجل البخيل، الحريص المسرف المترف ، ولكن فكره غير محدود في هذه الحدود البتة .

يقول :

أري قبر نحّام بخيل بمـــاله
كقبر غويّ في البطـــالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهم

صفائح صمّ من صفيح منضد

ومع هذه الخواص النفسية يوجد في الحياة الجاهلية الاجتماعية نوع خاص من علم الأخلاق الحسي ، يعتبر الجاهلي « إذا لم تنتشر في عصره الرقة والتخنث » الشجاعة والفروسية أسمى خصال الرجولة وأعظم المفاخر في حياته ، وإن لم تكن لهما غاية شريفة ومحل صحيح ، والحرب عند الجاهليين فضيلة ، وإن لم تكن خاضعة لغاية جميلة أو إرادة صالحة ،ويغلون فيها إلى حد تصعب معه الحياة من غير حرب ، فتصبح الحرب لهم شغلاً ومسلاة ومقصودة بذاتها ، فإذا لم يجدوا عدواً يحاربونه يحاربون حلفاءهم إبقاء لعادتهم وملأ للفراغ الواقع في حياتهم ، يقص الشاعر (القطامي) قصة هذه العقلية الحربية بصراحة فيقول :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

الحرب للحرب وإظهاراً للقوة فقط، عاطفة جاهلية خالصة وكثيراً ما تنبعث هذه العاطفة في المدنية الحسية وحضارتها ، يعرب شاعر جاهلي عن شغفه بالحرب وغرامه لها فيتمنى نشوب الحرب في القبائل إذا بلغت مهرته السن التي تصلح فيها للركوب والخوض في المعركة ليثبت فروسيته ، ويسلي نفسه ، وإن جرّت هذه الحرب ويلات وشروراً على حياة هذه القبائل وكانت مشأمة وكارثة في تلك الناحية ، يذهب ضحيتها نفوس بريئة ،

وبراعم غضة طرية ، ولكن لا عليه إذا جال بفرسه في هـذه الدماء والأشلاء ، وأثبت تفوقه على الأتراب والقرناء ، يقول :

إذا المهرة الشقراء أدرك ظهرها
فشبّ الإله الحرب بين القبائل
وأوقـــد ناراً بينهم بضرامها
لها وهج للمصطلي غير طائل

وإذا كان بين الأمم الجاهلية نوع من الاتحاد والتعاون ، فلا تكون له شروط وحدود ولا يكون مقياس من الحق والباطل ، بل يقوم أساسه على الحميّـــة الجاهلية والعصبية الجماعية . فإن استغاث بهم أحد لا ينظرون إلى ما يدعو إليه ، وهل هو مصيب أم مخطىء ، ومظلوم أم ظالم ؟ إنمـا ينظرون إلى من هو الداعي والمستغيث وما علاقته بهم ، وكان عملهم بالمبدأ الجاهلي القديم الذي تمثله الجملة المأثورة منهم «أنصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1].

يقول الشاعر الجاهلي :

---

(١) نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » عن إمام اللغة المفضل الضبي ، أن أول من قالها في الجاهلية هو جندب بن العنبر ، والمراد منه المفهوم اللفظي الظاهر ، وقد قلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفسرها تفسيراً جديداً ،فقد قال مرة « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قالوا يا رسول الله « هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ » قال : « تمنعه من الظلم فذاك نصرك اياه » (حديث متفق عليه) .

إنْ أنا لم أنصر أخي وهو ظالم
على القوم لم أنصر أخي حين يظلم

ويقول شاعر جاهلي آخر :

وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقـد هجا الشاعر الجاهلي قريط بن أنيف قبيلته بني العنبر على خذلانها لأخيهـا وتقاعدها عن نصره ، لعدم وضوح الموقف ومدح بني مازن على مبادرتها إلى النصر من غير تثبت واستيضاح، فقال :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا [1]

ولما كانت هذه المدنية الحسية المادية أكثر المدنيات انتشاراً في العالم وأحبها الى النفوس ، أفضنا في عرض ملامحها وقسماتها ، وأطلنا فيها بعض الإطالة .

المدنية العقلية [2] :

لم نجد في تاريخ المدنيات والحضارات الطويل، مدنية تستحق

---

(١) ديوان الحماسة .

(٢) هذه المدنية العقلية أيضا كما سيأتي في الصفحات الآتية ، مدنية حسية ومادية في الحقيقة ولكنها ذكرت هنا باستقلال لاشتهارها بالمدنيـة العقلية ، والدعاية التي قامت لوصفها بالعقل والعلم .

بجدارة أن توصف بمدنية عقلية خالصة يكون المحك في جميع قضاياها ، وفي قبولها ورفضها للأشياء، وفي سلوكها وتصرفاتها ، العقل وحده ، فلا تخطو خطوة ، ولا تتخذ موقفاً في الحياة حتى تعرضه على العقل ، وتزنه في ميزانه ، فإذا حكم العقل بصحته وحسنه قبلته ، وإذا حكم بفساده أو ضعفه رفضته .

فإن قامت هذه المدنية – على سبيل الافتراض – في بقعة من بقاع الأرض ، ضاقت الحياة على الناس ، وضاقوا بها ذرعاً ، وصعب أن تعيش هذه المدنية أقصر مدة من الحياة، كما قال أديب غربي : « إن الإنسان في حياته وأفعاله غير عاقل أكثر منه عاقلاً »، وذلك يصدق على المدنية كذلك. فالنظريات والأفكار، والعقائد والأخيلة ، والتقاليد والعادات ، ومبادىء الاجتماع والأخلاق والثقافة ، لا تستطيع أن تدخل في إطار العقل كلياً، أو يقوم أساسها كلياً على العقل، أو يكون العقل مقياساً لقبولها ورفضها ، وتكون أكثر هذه الأمور مرتجلة ومن غير استفتاء من العقل والمنطق،أو تحت ضغط العوامل التي لا صلة لها بالعقل والمنطق . فإذا أصدر العقل حكمه في هذه القضايا بالنفي أو التزييف ، نبذه المجتمع وأعرض عنه .

وفي بعض الأحيان يرى العقل مصلحته (وبالأصح يرى زعماء العقل وممثلوه مصلحتهم) في أن يؤيده ويمنحه شهادة الصحة ، أو يصبح له محامياً بارعاً ، فيقيم الدلائل العقلية على صحة هذه الأعراف والعادات ، أو المُثُل والقيَم ، أو العقائد والأفكار ،

مهما كانت ممعنة في الخرافة والسفاهة ، أو مقرونة بالظلم والقسوة ، حتى يستريح العقل منها ، وتستريح هي منه ، فلا يكونان في تضال دائم ، وفي عراك دام ، فكم دافع العقل اليوناني عن البغاء الرسمي ، وحرفة المومسات ، والشذوذ الجنسي ، الذي ظهر في المجتمع الإغريقي عندما بلغ أوجه في المدنية والفلسفة والرياضيات ، وكان من المدافعين عن كل ذلك الذين فلسفوه وشقوا الشعرة في فوائده ومصالحه ، كبار فلاسفة اليونان الذين لم يكن يرجى منهم الدفاع عن مثل هذه الرذائل .

وكذلك شأن العقلية الرومانية مع تقليد « المجـالد Gladiator » ومصارعة الإنسان للسباع (من الأسود والنمور) حتى الموت ، وفيها من القسوة والضراوة والوحشية ما لا يخفى ، ولكن العقل الروماني قـد ذهب كل مذهب في تعليله وإقامة الدلائل والبراهين على أنها نزهة بريئة وتسلية مباحة ، لأشراف روما وهواة المتعة واللهو ، وكذلك فقل عن تقليد وأد البنات عند العرب في الجاهلية ، وإحراق السيدات الهنديات لأنفسهن مع أزواجهن ، فقد كان كل ذلك مؤيداً بالدلائل العلمية والعقلية في العصر الجاهلي العربي ، وفي الحضارة الهندية القديمة ، والأعراف الاستقراطية المقدسة في الهند ، قبل أن يلغى هذا التقليد رسمياً في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي .

وإذا كان لنا سبيل الى الاطلاع على ما قيل وكتب عن هذين التقليدين الوحشيين في الأدب القـديم ، وكيف كان يدافع عنهما

المحافظون المتحمسون من هاتين الأمتين ، العربية والهندية ، عرفنا مدى مرونة العقل وصلاحيته لمسايرة الموجود المقبول ، وإبطال الحق وإحقاق الباطل في ذلاقة ومقدرة ، حتى يخيّل لكثير من الناس أن ما يقوله ، هو التبر الذي لا زيف فيه ، واليقين الذي لا يخالجه شك .

إن المدنية والاجتماع مرحلتان متأخرتان ، فإنهما تتكونان من عناصر كثيرة غير العقل ، فإن الحكمة والفلسفة نفسها لا تخلوان كلياً من عناصر غير عقلية .

وكم في الفلسفة اليونانية التي تعتبر جوهراً للعقل الإنساني ، من نصيب لعلم الأصنام والأساطير « الميثالوجيا اليونانية Greecian Mythology » ، والأوهام اليونانية ، والعقائد الأسطورية ، وامتزاج كل ذلك بلحم الفلسفة اليونانية ودمها ، حتى يستحيل تجريدها عن هذه الأجزاء في أكبر معمل كيمياوي للعمل التحليلي ، حتى ما أمكن لكبار الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطاطاليس ، رغم حريتهما الفكرية ، التي تغنّى بها التاريخ ودوّى بها العالم ، التجرد من تأثير بيئتهما وما كانت أخذته كمسلّمات علمية وحقائق عقلية لا تقبل الشك والجدال .

إن مدنيات العالم التي تظهر عند النظرة الأولى العابرة ، مدنيات علمية وعقلية ، ولكنها بعد النقد المحايد والفحص الحرّ تثبت مدنيات حسية محضة ومادية خالصة ، وأكثر هذه المدنيات خداعاً وفتنة ، المدنية الغربية الحاضرة تعتبر بقوة دعايتها

الساحرة ، أكثر المدنيات البشرية عقلية وعلميـــة في التاريخ الإنساني ، رغم أن كل تلميـذ للفلسفة الحديثة يعرف أن تاريخها يقوم على ثورة المادية وعبادة الحس والخضوع للتجارب التي قامت ضد العقلية والإيمان بما وراء الحس والعقل ، وانتهت الى انتصار المادة على العقل ، والحواس على الروح ، والتجربة على الإيمان ، الانتصار الحاسم النهائي .

فمن الحقائق التاريخية المقررة أن فلاسفة أوروبا وعلمــاء الاجتماع والأخلاق فيها شنّوا حرباً شعواء ضد العقل ابتداءً من القرن السابع عشر المسيحي . إنهم قالوا علناً وجهاراً أن كل حقيقـة تستعصى على التجربة ، وكل ما لا يدخل من الكائنات الموجودات في نطاق الكيل والإحصاء والوزن ، وكل الأخلاق التي لا تظهر فائدتهـا لا تصلح للقبول والاعتراف به . إنهم دعوا في كل قوة وصراحة الى التفكير في الكون بحرّية ، من غير أن يقوم ذلك على أساس نظرية ما بعد الطبيعة ، أو على الإيمان بوجود هو فوق مستوى البشر . إنهم أنكروا وجود كل شيء غير المادة والحركة وقالوا بصراحة ، انها لا تعمل في هـــذا الكون قوة نفسية أو روحية أو عقلية ، فتقرر أن التفسير الطبعي للكون هو الطريق العلمي للاستدلال والبحث ، وصارت كل طريقة غير هذه النظرية للبحث وأسلوب الفكر والاستدلال ، طريقة غير علميـة وغير معقولة ، وتدرجت الميكانيكية والتجربية والنفعية الى السيطرة على جميع شعَب الحياة ، فأصبحت التجربة أساس الأخــلاق

والاجتماع ، والسياسة والخلق ، ولم تسلم شعبة من شعَب الحياة أو مجال من مجالات القلب والذهن من الخضوع لهذه الفكرة السائدة .

ولا شك في أنه لم يتردد في الأدب الغربي كلمة بمقدار ما ترددت كلمة (العقل) و (الطبيعة) ، ولم يتغن هذا الأدب بلفظ رنان ولم يطرب ، مثل ما تغنى بهاتين الكلمتين وطرب بهما ، وليس لكلمة سحر على العقول مثل ما لها ، ولكن كلما بحث القارىء عن هاتين الكلمتين وراجع ما لهما من معان وتفسيرات في الحياة ، تحقق أن المراد بالعقل هو العقل الحيواني لا غير ، (إذا صح هذا التعبير) الذي يخضع للمحسوسات والتجربة وكل ما عداهما فهو سراب خادع ومناف للعقل ، ويعبر عن ذلك أحد فلاسفة القرن السابع عشر في أوروبا فيقول : « إن نتائج علمنا لا تصل إلى درجة اليقين، إلا عن طريق العلوم الرياضية ، إن العقل هو عصارة التجربة لذلك ، هو وليد العصر ومحصله ، إن جميع الأفكار التي لا تؤيدها التجربة تستحق الرفض لأن التجربة هي أم العلوم كلها » [1] .

وكذلك المراد من الطبيعة عندهم الطبيعة الحيوانية ، وهي التي تكون حرة من كل نوع من الأحاسيس اللطيفة والضمير الخلقي

---

(١) ليوناردس (Leonardo) راجع تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور Herold Hoffdring .

والقلب السليم والعقل الصحيح وتشمئز عن كل نوع من التقييد والتحديد ، وهي لا تقضي إلا أن يعيش الانسان في حرية كاملة يأكل ويشرب كيف ما يشاء .

فإن المجالات التي يطلق فيها كتّاب الغرب هذه الكلمة ، تعين توضوح أن المراد منها هو الطبيعة البهيمية لا غير .

إن الفكرة الاجمالية عن كون الانسان « حيواناً راقياً » التي قامت عليهـــا المدنية الحسية والعلم الحسي ، أصبحت حقيقة مشروعة واضحة مدعمة بالدلائل العلمية في الفترة الأخيرة التي اتسمت بالبحث والدراسة والنهضة العلمية ، والتي قادتها أوروبا الحديثة ، وسرت هذه النظرية في جسم الحياة كلها كالروح ، وصار مقياس السعادة الانسانية أن يكون الانسان أقرب إلى طبيعته الأصلية ، فكان بمقتضى هذه النظرية الطبيعية أن أصبحت اللذة والمتعـة (Enjoyment) هي الغاية العليا والمقصد الرئيسي للحياة ، الأمر الذي وصفـه الشاعر الايراني بلغته الشعرية ما معناه « تمتع بالحياة ما استطعت ، فما بعد الحياة من حياة » ، وأعرب عنه الشاعر العربي بشيء من الدقة ، فقال:

كريم يروّي نفسه في حيـــاته
ستعلم إن متنا غداً أينا الصدي

وأعرب عنه الشاعر الآخر متعللاً بقلة الحياة وقصر مدتها ، فقـال :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وأبان عنهم الغربيون الذين لا يعرفون التكلف وجانبوا الأساليب الشعرية المقنّعة فقالوا في وضوح وصراحة : « كل واشرب ، وكن مرحاً » (Eat & Drink & Be Merry) وتجلت هذه الفكرة المادية والأنانية في جميع مجالات الحياة الغربية فاتخذت في الاقتصاد صورة الرأسمالية ، وفي السياسة صبغة الاستعمار والسيطرة على البلدان ، كما واختارت في النظريات والأفكار أيضاً من بين أسلوبين متقابلين ، الأسلوب الذي كان أقرب إلى المادية ، مثلاً يمكن الاتحاد العالمي على أساس الوحدة والدين ، ولكن الاتحاد على أساس القومية الواحدة أو الجنس الواحد ، أو الوطنية الواحدة ، أقرب إلى الحسية والمادية ، وللحواس فيه جاذبية كبيرة بالنسبة للأساس السابق ، لذلك آثرت أوروبا القومية الضيقة على القومية العالمية ، والانسانية والوطنية المحدودة ، جغرافياً ، على النظر إلى الأرض كلها كوطن واحد ، وكلما ضعفت صلة أوروبا بالدين وازدادت غلبة الحسية والمادية عليها ، توثقت عاطفة القومية والوطنية بقدر ذلك ، كأنهما كفتا ميزان إذا رجحت الأولى شالت الأخرى .

وتحتل كلمة الروحانية (Spiritualism) في أدب أوروبا الجديد مكاناً كبيراً وبدأ الناس يهتمون بها في العصر الأخير ، لكنه من الخطأ أن نعتقد بأنها تعني حركة ربانية ونظاماً لتزكية النفوس وتصفية القلوب ، وإنما هي تربية بعض القوى الانسانية

الخفية وتنميتها ، ومناورة لعجائبها وشعوذتها التي أصبحت علماً مستقلاً من العلوم (Science) كالتنويم المغناطيسي ،وأصبحت صناعة من الصناعات (Art) لا أثر لها على الأخلاق والروح .

ولكن ليست أوروبا كلها لادينيـة بالإعلان بل معظمها تابعة للمسيحية ، يجتمع الناس يوم الأحد في الكنيسة ، ويحتفلون بالأعياد والمهرجانات المسيحية والتقاليد الدينية ،في حماس واهتمام بالغ ،ويرى الانسان كثيراً من المظاهر الدينية في المجتمع الأوروبي ولكن الحقيقة التي لا شك فيها أن دين أوروبا هو المادية فقط ، كما يتحدث مسلم أوروبي سليم الفكر عن حياة أوروبا وماديتها ، فيقول :

« إن الأوروبي العادي ، سواء عليـه أكان ديموقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً ، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي ، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر ، أو كما يقول التعبير الدارج « طليقة من ظلم الطبيعة » إن هياكل هـــذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء ، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ، وقادة الصناعة وأبطال الطيران ، وإن النتيجة التي لا مفر منها في هــذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة ، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها

بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة ، أمـــا على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق طراز بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العلميـــة ، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر ، إنما هو التقدم المادي .

إننا نجد في التطور الأساسي الذي تخضع له الحياة الاجتماعية في الغرب الآن ، تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة المبنية على الانتفاع تبرز للعيـــان شيئاً فشيئاً ، وكل الفضائل التي تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية — كالمقدرة الفنية (العلمية التقنية) والوطنية والشعور القومي — هي اليوم موضع المـــديح ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول، بينما الفضائل التي ظلت تعتبر الى اليوم المثل العليـــا من جهة قيمتها الخلقية الخالصة ، كالحب الأبوي والعفاف ، فهي تخسر قيمتها بسرعة لأنهـا لا تمنح المجتمع فائدة مادية محسوسة . لقد ولّى العصر الذي كانت فيه متانة الروابط التي تربط الأسرة مقياساً لسعادة الأسرة والقبيلة ورفاهيتها ، وخلفه في الغرب الحديث ، عصر يعنى بالتنظيم الاجتماعي تحت شعارات أوسع مدى من روابط الأسَر والبيوتات . والمجتمع الذي يكون أساسه فنياً آلياً — ويخطو خطى واسعة بسرعة كبيرة الى غايته الإلهية — لا يكون سلوك الإبن فيه نحو أبيه ذا قيمة اجتماعية كبيرة ، ما دام أفراد هـــذه الأسرة يعيشون في حدود الاحترام العام الذي فرضه المجتمع لمعـاملة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض . وبالتالي ، فإن الوالد الأوروبي يفقد في كل يوم

شيئاً من سلطته على ابنه ، وكذلك الإبن يضعف احترامه لأبيه على مرّ الأيام، ولقد أصبحت صِلاتها المتبادلة ضعيفة وفي طريقها الى الزوال ، وذلك لقيام مجتمع آلي يميل الى إلغـــاء كل امتياز لفرد ما على آخر ، ونتيجته المنطقيـــة أن الحقوق التي كانت تفرضها الأرحام والوشائج الدموية تصبح نسياً منسياً وبساطاً مطوياً [1] .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق (Islam at the Cross Roads) للأستاذ محمد أسد Leopold Weiss سابقاً .

المدنية الإشراقية

الإشراق ضد الخضوع لحكم الحواس والمادية . وكما أن الحسية تنكر الروح وما والاها ، وتصرف النظر عنها ، كذلك يحارب الإشراق الجسم والمادية. إنه يقوم على أساس الاعتقاد بأن الجسم قفص وطائر الروح مقيَّد في هذا القفص ، وأن هذا القفص هو حجر عثرة في سبيل الرقي والطيران، والروح لا يمكنها أن تتصل بمركزها الأصلي ومنبعها الحقيقي حتى تفارق هذا القفص . فإذاً يجب أن يكسر هـذا القفص أو تضعف أسلاكه ، ليطير طائر الروح إلى وطنه متى شاء .

يقول بارفري (Porphyry) عـالِم من علماء الإشراقية الجديدة : « إن غاية الفلسفة حضور الوفاة وقربها ، إذ به يتأتى انفصال الروح عن الجسم الذي هو غاية الحياة الحقيقية » .

ويقول علماء هـذا المذهب الآخرون : « إن الآفة الكبرى للإنسان اللذة والسرور ، لأن الروح لا تتمسك بالجسم ولا تعنى

به ، إلا لأجل هذه اللذة وهذا السرور، ويضمحل بسببها عنصر الروح الإلهيـــة ، وتسير الروح على طريق يهديها إليه الجسم منحرفة عن جادة الحقيقة، ولا يمكن حصول الفلسفة إلا بالعقل الخالص المحض ، بعــد إماتة الحواس الظاهرة ، ولا يزال الجسم يضلّ الروح، ولا نستطيع أن نعرف الحقائق الأصلية ما دامت الروح أسيرة في القفص المادي .

وكلما تأثر مذهب ونظام خلقي من هذه الفلسفة الإشراقية ، دخل في فرائضه ومبـادئه تعذيب الجسم والاستئصال للرغبات الإنسانية كلهـا ، وإماتة العواطف ، والتبتّـل ، والرهبانية ، وُسلّم أن الجسم والروح ضدّان لا يجتمعـــان ، وأن سعادة الإنسان في أن يُقهر الجسم ويصرف النظر عنه من أجل الروح .

والنتيجة الحتميـــة لهذه الفلسفة أن يصبح الجسم وما إليه عرضة للتغافل والإعراض ، بل الذي يؤمن بهذه الفلسفة يعادي جسمه كما يعادي سالك في طريق الحجر الذي تتكرر عثرته به، وكما يعادي طائر طال عهده بعُشّه قفصه الذي قُيّد فيه .

فيحسب ذلك الإنسان دنياه دار العذاب ، وحيـــاته عبثاً ثقيلاً ، وعلاقات الدنيـــا أغلالاً وسلاسل . ومن المعلوم البيّن الظاهر ، أن هذه التصوّرات تجتثّ أصول المدنية ويمكن بهـا تخريب أية مدنية بسهولة . وأما استخدامها هـــذه الفلسفة (السلبية) في بنـاء مجتمع وتأسيس حضارة ، فلا مجال له . إن الحسية والروحانية الخالصة هما على طرفي النقيض، ولكن بينهما

فرق كبير ، وهو أن الحسية تفوز في افاقة المدنيــة على مبادئها بسهولة ، وأمـــا الروحانية الخالصة فلم تقم على فلسفتها حياة متحضرة في أضيق نطاق وأصغر رقعة في تاريخ الانسانيــة الطويل .

فكانت النتيجة أن الذين قبلوا الفلسفة الاشراقية ، عاشوا على أسس المادية والحسية ، منقطعين في حياتهم الخارجية عن المبادىء الاشراقية والروحانية ،واضطروا في حياتهم إلى التلقيح بين المادية والروحانية ،فكانوا في معابدهم إشراقيين وروحانيين، أما على بساط السياسة فكانوا ماديّين وحسيين بكل معنى الكلمة. إن الامبراطور الهندي (أشوك Ashok) الذي كان يؤمن بالبوذية في حماس وإخلاص ، وكان مع ذلك حاكماً كبيراً وفاتحاً منتصراً ،هو مثال جميل لهذا الموقف المتناقض والسلوك المزدوج.

ولما اعتنق قسطنطين المسيحية (التي مسخت على أيدي أئمتها ودعاتها وصارت تعليماً للروحانية الخالصة والإشراقية) سلك في نفس هذا الطريق المتناقض ، ولقح روحانية المسيحية بمادية الروم الوثنية وجاهليتها ،فإذا لم يكن الأمر كذلك ،بل بالعكس تسنّى لتعاليم روحانية خالصة التأثير في الحضارة وإلقاء ظلالها عليها تعرضت تلك الحضارة للانحطاط والتخلف ، واحتضرت تلك الأمة والحضارة بالتدريج ،فاما تنقرض تلك الأمة والحضارة وتطوى ، وإذا كانت هذه الأمة تملك قوة مقاومة فإنها تخوض حركة رد فعل عنيفة ضد هــذه الروحانية الغالية ، ولا تنتهي

هذه الحركة المعادية إلا عند المادية المحضة ، ولا تسمح بتفاهم مع تلك الروحانية أو بتعايش معها ، فتتحول هـذه الحضارة من روحانية غالية ، إلى مادية متطرفة .

وهذه هي قصة أوروبا ، فقد أصبحت الديانة المسيحية فيها (بتأثير الإشراقية أولاً ، وبجهل زعماء هذه الديانة وتحريفهم ثانياً) نظاماً ثائراً على الفطرة قائماً على الرهبانية الغالية ، تعتبر الحياة الزوجية معصية كبيرة وتنظر إلى طبقة الإناث كلعنة للدنيا وترى الاتصال بها أكبر حاجز في الكمال الديني ، ودخل كل ذلك في أصول الديانة ، ودعا أكبر علمـــائها إلى حياة التبتل والعزوبة في قوة وحماس،وكان رهبان القرون الوسطى وأحباره ينتزعون الأطفال من حجور أمهـــاتهم ، ويهربونهم إلى قلب الصحراء ، ويحولونهم إلى رهبان ، ويفتخرون بذلك، وحكايات الغلو في المسيحية الممسوخة،وتخطيها لحدود الإعتدال،ومعاداتها للمدنية وتعذيب الجسم وإيذاء النفس ، وقصص الرياضة المؤلمة غير الفطرية ، وإقامة الرهبان في كهوف السباع والآبار الغائرة والمقابر الموحشة،وستر الجسم بالأشعار الطويلة والمشي على الأيدي مثل البهائم ، وأكل العشب مكان الطعام والوقوف على قدم واحدة لمـدة طويلة ، التي حكاها (ليكي Lecky) في كتابه «تاريخ أخلاق أوروبا»تقشعر منها الأبدان ويشمئز منها الوجدان فكانت نتيجة هـــذا النظام الروحاني المعادي للإنسانية أن تضعضعت أسس المدنية في كل بلاد كانت تحكمها المسيحية والدين

المسيحي ، وبدأ عمران تلك البلاد يتضاءل بسرعة وتفشت الأمراض والأموات والجدب والمجاعات ، وكاد العلم يفنى ، وآثار الحضارة تنمحي ، ولم يبقَ من وسائل الحياة إلا اسمها ، وسادت الجهالة والوحشية والظلمة على دنيا المسيحية كلها ، حتى سميت القرون الوسطى بـ (القرون المظلمة Dark Ages) .

وكان طبيعياً أن ينشأ رد فعل ضد هذا الوضع ، فلما انهزمت الروحانية والرهبانية في القرن التاسع عشر المسيحي هزيمة أخيرة تهافتت أوروبا على المادية مثل الفقير المدنف على الطعام وكانت هذه المادية انتقاماً من الظلم الذي استباحه رهبان المسيحية وأحبار الكنيسة على الإنسانية ، عدد قرون ، ولكن كان هذا ظلماً آخر على الإنسانية ، ويصعب القول أيها أكبر ، وأيها كان أكثر ضرراً للمقومات الإنسانية ، كما يصعب التكهن متى تثور أوروبا ثورة ثانية ضد هذا الوضع غير الطبيعي ، وتنشأ حركة رد فعل أخرى ضد هذه المادية البهيمية ، بل السبعية وهذه الجمادية الميكانيكية وأين ينتهي ذلك .

طريق آخر لجواب هذه الأسئلة

« الرسالة »

حاصل هـذا البحث والتنقيح الذي شغلكم طويلاً ، بأن جميع قوى البشر ، الظاهرة منهـا والباطنة ؛ وحواسه وعقله وشعوره الباطني ، ومشاهداته الباطنية ، عاجزة عن حل هذه الأسئلة الهامة الأساسية ، وكلما حاول الإنسان حلّها على أساس هذه القوى في تاريخه الطويل ، مُنِيَ بالإخفـاق ، وكلما حاول أن يقيم كيان حضارته وحياته على أساس هذه الأجوبة المشبوهة القياسية ، والمفترضات ، وقع في أساسه اعوجاج ظلّ به جداره منحرفاً إلى الثريّا .

ولكن هل نستطيع أن نقتنع بهذه النتيجة السلبية ؟ وهل يسوغ لنا أن نقرر أن هذه التساؤلات ما لها جواب مقنع ، وأنها ستظل ألغازاً على مَرّ القرون والعصور ؟

إننا حين نسرح النظر على الكون ، ونرى سعته وعظمته ، وصنعته وحكمته ، وسعة قوانينه التي تحكمه ، واعتدال عناصره وتناسب أجزائه وتعاون بعضها مع بعض ، لا يقبل عقلنا السليم أن يفرض أن هذا الجهاز العظيم البديع ظهر إلى الوجود من غير صانع ، ويسير بلا سائق ، ليس له غرض ولا غــاية ، وسوف ينتهي بنفسه .

وكذلك حين نلاحظ هــذا الاهتمام الكبير الذي أُحيط به الإنسان في الدنيا ، من مولده إلى موته ، ونلمس هذه التنظيمات الواسعة التي تساير الإنسان وترافقه ، وتيسّر مهمته في كل خطوة يخطوها وفي كل مرحــلة يدخل فيها ، ونلاحظ أن الإنسان هو نقطة الدائرة والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة ، ونستعرض الوسائل المتوفرة المنتشرة على الأرض لإكمال كل شعبة من شعَب حياته ، ولتحقيق كل رغبــة من رغباته المخفيّة السرية أحياناً ، ونتأمل في نظام الدلالة والهداية الدقيق والإلهام الفطري الحكيم الذي يكتنفه في جميع مجالات الحياة ، يأبى عقلنــا أن يسيغ ويقبل أن حياة هذا الإنسان المحتفل به هذا الاحتفال العظيم ، من غير غاية ، وأنه خُلِق عبثاً وتُرِك سُدىً ، وأنه لا يرتفــع عن مستوى البهائم والحشرات ، وأنه ليست هنــالك دلالة أو إرشاد في ما يتصل بهذه التساؤلات النابعة من فطرته السليمة ، وفي هذه القضايا الحساسة الحاسمة التي تقرر المصير والتي فيها سرّ سعادته ونجاته ، وأن المجال الروحي هو المجال الوحيد المهجور

الذي لا نور فيه ولا دلالة .

ونلقي نظرة على الكون ، فنرى أنه كامل لا من الناحية الفردية بل من حيث المجموع . إن أجزاءه تكوّن هذه المجموعة المتناسقة الكاملة بتعاون بعضها لبعض ، ولا يستطيع جزء من هذه الأجزاء أن ينوب عن آخر ويقوم مقامه. والنظام الإنساني قائم هو الآخر بهذا التعاون وتوزيع الأعمال والوظائف .

ونحن الآن ، بعدما بحثنا عن الكون ونظامه بحثاً دقيقاً وتفصيلياً كذلك ، اعترفنا بعجزنا من أن نفكّ هذه الألغاز بأنفسنا نحن ، وفي الوقت نفسه ندرك أننا في حاجة الى نظام منزل من الله للهداية والإرشاد ، وفي هذه القضايا ، ولكننا ليس لنا أن نلحّ على أن كل فرد من أفراد البشرية أهل للقيام بعمل الهداية ، لأنه يتنافى مع سُنّة فاطر الكون وطبيعة هذا العالم .

الأنبياء :

وهنا يتمثل أمامنا رجال يدّعون أنهم يرشدوننا في هذه القضايا على بيّنة من الله. إنهم يقولون : قد كشف الله لنا كثيراً من أسرار هذا العالم ، وأخبرنا بعالم جديد (عالم الغيب) [١] .

---

(١) الغيب في الاصطلاح : حقيقة لا تدرك بالحس المحض والعقل الخالص.

إننا نرى هذا العالم حين يريناه الله كما ترون هـــذا العالم (عالم الشهود) ، إنه منحنا علم ما يرضاه لعباده وما لا يرضاه ، وعلم الأحكام بطريق مباشر ، وجعلنـا واسطة بينه وبينكم ، وأنزل علينا كتابه ، وهذه الجماعة هم الأنبياء .

إن هؤلاء الذين يقولون أنهم أنبياء انكشفت لنا عن سيرتهم نواحٍ وسِماتٍ يتّسمون بها ، عرفناها بدراسة حياتهم وبشهادات جيرانهم ومعاصريهم ، وبالأخبار المتواترة المستفيضة في التاريخ ، وهي كما يلي :

١ – إنهم كانوا على جانب عظيم من سموّ الأخـلاق ونزاهة السيرة ، لا مغمز في حياتهم ولا مأخذ من المآخذ التي تكثر في حياة غيرهم . لم يسجّل عليهم كذب أو تزوير في أتفه الأمور ، فضلاً عن ما له شأن وخطر ، ولم يروَ عنهم قط أنهم خدعوا أحداً ، وقــد احتجّ بهذا الماضي المشرق النزيه والرصيد الغني ، الذي أقرّت الفطرة السليمة والعقول المستقيمة في الأمم المعتدلة قديماً وحديثاً بقيمته ومكانته – آخر الأنبيـــاء ﷺ ، فقال : « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون »[1] .

٢ – إنهم يمتــازون بكمال العقل وسلامة الفطرة ، وإصابة الرأي في جميع الأمور ، والاعتدال والاتـزان في كل مــا يأتون

---

(١) سورة يونس : ١٦ .

ويذرون،لا يؤثر عنهم شيء يشكك في رجاحة عقلهم ونباهتهم وصحة قواهم الفكرية، وقد نفى خالقهم الذي أرسلهم عنهم كل ظنة ومرض عقلي، فقال: «وما أنت بنعمة ربك بمجنون»[1]. وقال أحدهم متحدياً لقومهم: «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة»[2].

٣ – إنهم في قضايا العالم الأخرى رجال وسط يعيشون كما يعيش الناس حياة عادية هادئة، تتسم بالاعتدال والاستقامة لا يدعون في أنفسهم في قضايا الحياة وعلوم البشر اختصاصاً أو تفوقاً على غيرهم أو براعة في فن من الفنون لا يشاركهم فيها غيرهم، بل يقول الواحد منهم في كل بساطة وصراحة: «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي»[3]. ويقول الله تبارك وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى»[4].

٤ – إنهم يخبرون بالأخبار والعلوم التي يعرف الإنسان بداهة أن مصدرها غير مصدر العلوم التي تستفاد من العلماء والمعلمين، وأهل الحذق والبراعة من أفراد البشر. فعلومهم

---

(١) سورة القلم: ٣.
(٢) سورة سبأ: ٤٦.
(٣) سورة الكهف: ١١٠.
(٤) سورة يوسف: ١٠٩.

تختلف عن العلوم البشرية المكتسبة من الكتب والمصادر العلمية والتجارب المبنيّة على الذكاء والاجتهاد والملكة العلمية، اختلافاً بيّناً ، ولا صلة لها بتلك الوسائل التي توارثتها البشرية ، وقام عليها صرح العلم قديماً وحديثاً من تعليم وقراءة وكتابة ومراجعة للكتب ، وتأمل وتمرين ، وإلى ذلك أشار الله تعالى في قوله :

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »[1] ، وبقوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون »[2] .

٥ – ويكونون في الغالب بمعزل عن المصطلحات العلمية التي يخضع لها ويستخدمها أهل الصناعة العلمية والمنخرطون في سلك العلماء والمؤلفين ، ولا يستغنون عنها ، إنهم يستخدمون الطرق الفطرية الموهوبة ويرسلون النفس على سجيتها، ويخاطبون الفطرة البشرية بلغتها التي تفهمها والأسلوب الذي ألفته في جميع البيئات ومراحل الحياة ، فلا تحتاج إلى شارح أو ترجمان وإلى ذلك يشير أحدهم (وهو محمد ﷺ) بقوله : « وما أنا من المتكلفين »[3] ، إن ينبوع الحقيقة يفيض من لسانهم كما ورد على جنانهم، لا يحبسه حابس ، ولا يتلوّن بلون خارجي ، يقول الله تعالى : « وما

---

(١) سورة هود : ٤٩ .

(٢) العنكبوت : ٤٨ .

(٣) سورة ص : ٨٦ .

ينطق عن الهوى ، إن هو إلاّ وحي يوحى »[1] ، ولا يتصرف فيه النبي وفقاً لمصلحة ، أو خوفاً من ضرر أو معارضة ، فيقول آخر الأنبياء ﷺ : « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ »[2] .

٦ — إنهم يقضون ردحة من حياتهم لا يأتون فيها بدعوى ، ولا ينتظر الناس منهم ذلك ، ولا يستشرفون بأنفسهم إلى منصب يمنحونه ، أو كرامة يكرمون بها ، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ كما حكاه القرآن عنه : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون »[3] ، ويقول الله : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ولكن رحمة من ربك »[4] .

٧ — إنهم يمتازون بالاستقامة الخلقية ، قد عصمهم الله تعالى من كل رذيلة أو وصمة من وصمات الحياة الجاهلية ، أدّبهم ربهم فأحسن تأديبهم ، وقد ظهرت علائم الرشد منذ نعومة أظفارهم وامتازوا بين أترابهم وأعضاء أسرتهم بسلامة الفطرة وصفاء القلب ، ويقظة الروح ، وحب الإعتـــدال والإنابة إلى الله ، وكراهة الظلم ، والبعـد عن الفحشاء ، والعطف على الضعفاء ،

---

(١) النجم : ٣٤ .

(٢) يونس : ١٥ .

(٣) يونس : ١٦ .

(٤) القصص : ٨٤ .

والفقراء ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله . « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » [1] ، ويقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » [2] .

٨ — ولا يتسم العلم الذي يأتون به بالتدرج والانتقال من مرحلة إلى مرحلة من النضج والحصافة والرقي ، كما جرت به العادة في العلوم البشرية والصناعات العلمية ، ولم يعد ذلك عيباً بكل عدّ كمالاً ونبوغاً ومدح به العلماء ووصف به العلم في تاريخ العلم وتطوره في كل أمة ودور ، ولكنهم بالعكس من ذلك ينكشف عليهم الحق فجأة وكاملاً ، ولا يتغير بتقدم في العمر وبزيادة في العلم والتجارب ، أو الحنكة والممارسة يقول القرآن : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » [3] .

٩ — إن ثقتهم بالحقائق الغيبية والعلوم التي يكرمهم الله بها ، ثقة لا تقاس بثقة أهل العلوم بعلومهم ، فإن جميع هذه الحقائق التي يكشفها الله عليهم تصبح لهم حسية بديهية ووجدانية ذوقية ولا يتطرق إليها شك ، ولا ترتقي إليها شبهة ، ولا تقبل مراء ولا جدالاً ، يقول الواحد منهم تارة : « قل هذه سبيلي أدعو إلى

---

(١) سورة الأنبياء : ٥١ .

(٢) الأنعام : ١٢٤ .

(٣) النساء : ٨٢ .

لله على بصيرة » (١) ، ويقول طوراً : « قل إني على بيّنـة من ربي » (٢) ، ويقول الآخر : « أتحاجوني في الله وقد هدان » (٣).

١٠ ـ إن أمور الغيب التي يطالبون بالإيمان بها كالأصول الموضوعة هي الدائرة الوحيدة التي لا يتناولها العقل بنقد (لأنه لا يملك المبادىء الأولية والوسائل البدائية التي تمكنه من ذلك) أما ما عدا ذلك من التفاصيل والتعاليم والنظم التي يدعون إليها ويعلمونها ، كالعبادات، والأخلاق ، والمعاملات ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن، فللعقل مجال فيها، وأنه يهتدي إلى الحكم والمصالح التي تتضمنها هذه التعاليم ، وقد تحقق أنهم دعوا إلى منهج للحياة لم يعرف أن حكيماً من الحكماء قدّم منهجاً أفضل منه ولم تجرب البشرية في سيرها الطويل نظاماً أمثل من هذا النظام ، وأعود على البشرية بالسعادة والسلام ، وقد أشار إلى ذلك القرآن بقوله : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٤) .

لقد أصبح الذين دانوا بتعاليمهم (بعدما آمنوا بمبادئهم الأولية التي دعوا إليها) شامة بين الناس، وناراً على علَم في حسن سيرتهم وكرم أخـــلاقهم وطهارة نفوسهم وفي جامعيتهم وفي اعتدالهم وتوازنهم ، وفي تقواهم وخشيتهم لله ، وفي معرفتهم للحـــق

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .
(٢) الأنعام : ٥٧ .
(٣) الأنعام : ٨١ .
(٤) الجمعة : ٢

وحمايتهم له ، لا يجاريهم في ذلك مَن نشأ في أحضان المصلحين الآخرين وتخرّج في مدارس خلقيـــة تربوية في مختلف أدوار التاريخ وشتى أنحاء العــالم . يقول القرآن عن بعض مَن نشأ في أحضان هذه التعاليم النبوية وفي ظلال هذه التربيـــة الفريدة : « ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان »[1] . وقال : « والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون مَن هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[2]. إلى غير ذلك من الخصائص التي مدحت بهـــا الأمة التي رضعت بلبان التعاليم النبوية .

١١ — إنهم لا يدّعون علم الغيب استقلالاً وبصفة دائمة ، ولا يستطيعون أن يجيبوا على كل سؤال من عند أنفسهم في كل وقت . يقول القرآن على لسان نبي من الأنبياء وهو محمــد ﷺ : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتّبع إلا مـــا يوحى إليّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون »[3] . وإنما يتطلعون الى نزول الوحي ، يقول الله تعالى : « قد نرى تقلّب وجهك في السماء »[4] ، ولا

---

(١) الحجرات : ٧ .
(٢) الحشر : ٩ .
(٣) الأنعام : ٥٠ .
(٤) البقرة : ١٤٤ .

يكون في وسعهم أن ينالوه متى شاؤوا وكيف شاؤوا .

وفي بعض الأحيان يكون هذا التنزيل والوحي مخالفاً لهوامم وأحياناً مخالفاً لقياسهم وعملهم ، وقد يعاتبون فيه وينصحون ، وفي القرآن شواهد على ذلك منها قوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى »[1] . وفي آية أخرى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض »[2] . وقال في آية : « يا أيها النبي لمَ تحرّم ما أحلّ الله لك »[3] . وقد نزلت سورة بأثرها في تنبيه النبيعلى موقف اتخذه إزاء كافر مستغنٍ ومؤمن مخلص طالب للحق ، وما كان ذلك إلا لحرصه ﷺ على نشر دعوته وتقويتهـــا ، وهي سورة « عبس » .

١٢ — إنهم على صلة وثيقة استثنائية بالله تعالى ، يساندهم تأييد الله ونصرته وقوى الكون كله تبدو مسخّرة لهم ، وقد تظهر في توثيقهم وتصديق نبوتهم أحداث غريبة تبدو معارضة لنظام الكون الطبيعي وأسبابه يقصر ذهن الإنسان وتجربته عن فهمها وإدراك علـّتها ، غير أنها تظهر بقدرة الله وتبرهن علىأنهم من أوليائه ، وأيضاً لا يكون لهم خيار في ظهور هذه الوقائع ،

---

(١) التوبة : ١١٣ .

(٢) الأنفال : ٦٧ .

(٣) التحريم : ٦٦ .

ولا يستطيعون إظهارها بهواهم كلما طالبهم الناس بذلك . يقول القرآن : « وقالوا لولا أُنزل عليه آيات من ربه ، قل إنمـا الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » [1] . ويقول : « ومـا كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجَل كتاب » [2] . ويقول : « وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم ، فإن استطعتَ أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السماء فتأتيهم بآية » [3] .

هـــذه هي جماعة الأنبياء وميزاتهم والشهادات على صدق دعواهم والقرائن الدالـّة عليه وعلاماته ، ولكن أكبر شهادة لهم هي شخصيتهم وسيرتهم ، التي هي معجزة متصلة ممتـدة على فترة زمنية طويلة ، بل هي مجموع معجزات قد يبلغ عددها إلى مئات وآلاف، وهي المعجزة التي آمن بها أكبر عدد من أتباعهم.

والشهادة الثـانية الكبيرة هي تعاليمهم وصحيفتهم التي هي معجزة حيّة خالدة ، والتي تتضمن مئات من المعجزات البيانية البلاغية والمعنوية والتربوية ، منها ما هي داخـلة فيها ، ومنها ما هي نابعـة منبثقة عنها ، ومنها معجزات هي من صميم هـــذه المعجزات ، ومنها ما هي جانبية .

فلنفكر الآن قليلاً ما الذي يدعو إلى التشكك في ما إذا

---

(١) العنكبوت : ٢٩ .
(٢) الرعد : ٣٨ .
(٣) الأنعام : ٣٥ .

كان الله اختصّ عبداً من عباده لتبليغ رسالاته وكلامه وأحكامه إلى خلقه ، واجتباه لدلالتهم وإرشادهم ، هل في ذلك ما يتنافى مع العقل السليم ، أو ينقض قانوناً من قوانينه ، أو السنن التي سنّها ؟.

هل ذلك مما لا يتفق مع ما علمناه وجرّبناه من صفاته تعالى من القدرة المحيطة التي عبّر عنها بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » [1] ؟. وعلمه المحيط الشامل ، ومنه علمه بضعف البشر وحاجتهم وافتقارهم إلى الهداية والدلالة ، وتفاوت مداركهم ، ومستويات فهمهم وعقولهم ، وكون بعضهم عيالاً على بعض في العلوم والصنائع البشرية ، الحقيقة التي عبّر عنها بقوله : « ألا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير » [2] . بل إن عكس ذلك وهو تعطيل الأجيال البشرية وتركها هملاً ، حبلها على غاربها ، هو الذي يتنافى مع ما اتصف الله تعالى به من الرحمة والعدل والاهتمام الكبير لسعادة البشر وراحتهم وبلوغهم الغاية التي خلق استعدادها في نفوسهم : « هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » [3] .

وهل هذا خلاف لقدرة الله وشهادة التاريخ؟ ولا يصح ذلك،

---

(١) يس : ٨٣ .

(٢) الملك : ١٤ .

(٣) طه : ٥٠ .

فقد بعث الله الأنبياء في كل زمان احتاجت فيـه البشرية إلى الهداية والإرشاد ، وفي كل أمة ضلـّت وتاهت ، ولم تقم حجة وبرهان على خلاف ذلك ، واقترنت دعواهم بيّنات من الحجج والشواهد ، وكان في مواجهة دعوتهم دعاوٍ فارغة لا دليل معها ولا برهان .

وهل يخاف ذلك الحس والتجربة ؟ ولا شك أن الحواس والتجارب الإنسانية بشكل عام لا تصلح أن تكون محكاً للنبوة يمكن بها تصديقها أو تكذيبها لأنها خلقت لممارسة أعمال طبيعة محدودة ، وقضاء حاجات بشرية عادية ، ولكنها تستطيع أن تساعدنا في فهم هذا الطور الذي يبلغ إليه الأنبياء ويُستأثرون به ، وفي تسليم إمكان هذا التفاوت العظيم بينهم وبين عامة الناس يجب علينا أن نفكر في معارفنا ومعلوماتنا ، فإنها لم تتيسر لنا في بداية العمر وحالة الجهل ، وقد جهلها كثير ممن سبقنا من الآباء والأجداد ، ولكنها حصلت لنا بالتعليم وبنظام خاص من التلقين والإكتساب ، فما هو المانع من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حصلت لهم معارف وعلوم ، هي أسمى وأدق وأصح من علومنا المكتسبة ، بالتعليم الإلهي وبواسطة الملك ونزول الوحي ؟!

وقد ردّ القرآن على هذه الشكوك الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء بـه موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم

مـــا لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون »[1] .

وتفيد الكلمات الأولى في الآية أن الذي ينكر الرسالة والنبوة ، هو لا يعرف صفات الله في الحقيقة ولم تحصل له معرفة تامة بها ، فمن كان يعرف شيئاً من صفة ربوبيته وصفة رحمته وصفة عدله ، والذي له معرفة بلطفه وعنايته التي تعم الإنسان من أول أمره ، لا يستطيع أن ينكر الرسالة التي هي أهم شعبة من ربوبيته وأكمل مظهر من مظاهر رحمته ، وأوضح دليل لعدله فقال : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » . ثم تعرضت هذه الآية للرد على من ادّعى أن دعوى النبوة بدع من الأمر لم يسبق له نظير ، فقالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » . وهنا يتساءل القرآن فيقول : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس » . وخبر نبوة موسى من الأخبار المستفيضة المتواترة التي لا تقبل الجدال ، وقد كان من هؤلاء المستغربين للنبوة المحمدية ، وفي مقدمتهم يهود المدينة فقال مخاطباً لنبيه : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » . ثم قدم حجة حسية وتجريبيــة على إمكان النبوة ، وهو تدرّج الانسان من الجهل إلى العلم ، ومن الأميــة

---

(١) سورة الأنعام : ٩٢ .

إلى الثقافة والتوسع في المعلومات والتضلع من العلم، والانتقال من درجة إلى درجة، حتى يكون بين الأمي والمتعلم، وبين متوسط في العلم ومشارك فيه، وبين متبحر ضليع وإمام مجتهد، من البون الشاسع والفرق الواسع ما لا يبلغه قياس كثير من الأذكياء وهو دليل على أن المعارف لا نهاية لها وأن مدارك البشر لا تمكن الإحاطة بها « وفوق كل ذي علم عليم ». وهو قوله تعالى مستدلاً على امكان حصول علم خاص للأنبياء : « وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » .

وفي الحقيقة ليست في امكان النبوة والاختصاص بعض البشر بالوحي والتنزيل والرسالة والنبوة، استحالة عقلية، ولكن الذي لم يترقّ فكره وذهنه إلى هذا السموّ الفكري ليس في وسعه أن يقيس ذلك المقام، وليس له بديل سوى الاعتماد على النبي وتقليده .

وجاء هذا الفرق الطبيعي والفجوة الواسعة العميقة التي تقوم بين من يكرم بالنبوة وتعليمها، وبين من يكون بمعزل عنها، مصوّرة مجسّمة في حكاية جبل الصفا وخطبته، وهو المثل الحكيم البليغ لما يمتاز به النبي عن أفراد البشر وما يتمتع به من نور وبيّنة ومشاهدة لا حظ فيها لغيره .

وهو ما تحكيه السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ لما أمر بإنذار عشيرته صعد على جبل الصفا، ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه» وكان من عادة العرب أنهم كانوا يعلنون بهذا الصوت

الخطر العظيم ، وقـد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة تخرج من فم أصدق رجل عرفوه في بلدهم وسموه (الصادق الأمين) وفهموا معناها ومغزاها وملابساتها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث فلم يتأخر في تلبية هذا النداء ، فاجتمع النـــاس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله [١] ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني » [٢] ؟

وكان القوم الذين خاطبهم الرسول العربي ﷺ أمّيين غـير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعـــلم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ، ولكنهم كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك. إنهم رأوا رجلاً جرّبوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة وحب الخير ، قد وقف على جبل يشاهد ما أمامه ، وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمّل طويل أن له الحق في أن يتحدث عما في السفح المقــابل من عدوّ رابض وخطر كامن ، وليس لهم حق — وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل — أن يكذبوا وينفوا رؤيته ، على أساس أنهم

---

(١) البداية والنهاية — لابن كثير — ج / ٣ ، ص / ٣٨ .

(٢) نفس المصدر .

لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، فقالوا نعم ! نصدقك لأنك صادق أمين ، وأنت واقف على الجبل .

فقال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »[1] .

وفي الحقيقة كان هذا تمثيلاً للنبوة وأوثر له هذا الأسلوب الحكيم . فالذين لا يكونون على هذه القمة التي يكون عليها النبي ليس لهم أن ينكروا هذه الحقائق والعلوم التي يقدمها النبي بتنزيل الله ووحيه ، على أساس قياسهم وتخمينهم ، ليس لهم إلا أن ينكروا مشاهدتهم وينفوا علمهم ، ولكن كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن عدم العلم لا يستلزم علم العدم » فبينهما فرق كبير ، فليس ما جهله الإنسان كان معدوماً ، وكم من موجود في الدنيا يجهله ملايين من البشر .

فإذا جادل النبي وباحثه رجال ليس لهم علم بالنبوة ولا إدراك لحقائق وأسرار ما وراء الحس والعقل ، وحاجّوه في ما هو له بديهي ومشاهد ، أجابهم النبي ، وقد ضاق صدره من محاجّة هؤلاء ومكابرتهم في الواقع ، فقال : « أتحاجّونّي في الله وقد هدان »[2] .

---

(١) استفيد في هذا الحديث من كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » .

(٢) الأنعام : ٨٠ .

وكذلك إذا عجز نبي من الأنبياء – بطبيعة الحال – عن أن يشرك غيره فيما يراه ويشاهده، ويخلق فيه ذلك اليقين الذي حصل له، قال معتذراً: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون»[1].

إن كثيراً من هؤلاء الناس الذين يملكون حواساً سليمة وعقلاً كبيراً يستعينون به في قطع هذه المسيرة وترقية الحياة وترفيهها، إذا واجهوا علوم النبوّة الدقيقة وما يخبر به الأنبياء عن عالم الغيب وحياة أخرى ونعمائها، خانتهم قواهم وخذلهم ذكاؤهم فتذرّعوا تارة بالشك، وتارة بالإنكار، وطوراً بالعيّ والعجز والعمى، وهم الذين صوّرهم القرآن في قوله: «بل ادّارك علمهم في الآخرة، بل هم في شك منها بل هم منها عمون»[2]. ويقول: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون»[3]. ولو تكلموا في هذه القضايا لم يعتمدوا على يقين ومشاهدة، إنما بنوا على قياس وتخمين وجزاف من القول: «وما لهم به من علم إن يتّبعون إلا الظنّ، وإن الظنّ لا يغني من الحق شيئاً»[4].

---

(١) هود: ٢٨.
(٢) النمل: ٦٦.
(٣) الروم: ٧.
(٤) النجم: ٢٨.

تعاليم الأنبياء

وندرس الآن مـا هي المعلومات التي حملها الأنبياء الكرام عن ذات الله وصفاته ومخلوقاته ، وهذا الكون وعلاقة الرب به وعلاقته بالرب ، وحقيقته وعاقبته ، وغاية حياة الانسان وما نقلوا إلينا من الأخبار عنه وعن الكمال المطلوب وما هو الأساس للمدنية والاجتماع والأخلاق الذي شيدوه ، ثم ندرس بها حياة الانسان التي تقوم على هذا الأساس وما هي ميزاتها .

ولا يفوتنا هنا أن تعاليم الأنبياء متفق عليها ، وهي تلتقي على أساس واحد وتنبع من مصدر واحد، بخلاف كلام الفلاسفة والإشراقيين الذي يكثر فيه التناقض والإضطراب والذي ينقض بعضه بعضاً [١] ، وكان جديراً هناك أن نستعرض نموذجاً من

---

(١) راجع كتاب « مقـاصد الفلاسفة » لحجة الإسلام الغزالي وكتب الفلسفة القديمة والحديثة ، وراجع تاريخ الفلسفة الحديثة لهيرالد هوفدرنك (Dr. Herold Hoffdring) .

أقوال الأنبياء ، ولكن أكثر صحفهم قد ضاعت ، ولم يصح ما بقي منها ، فلا يمكننا استعراضها إذ عبثت بها أيدي الأحبار والملوك والحوادث الدامية كما عرفنا من تاريخهم ، ولذلك نكتفي بأمثلة من القرآن الكريم وهو آخر الصحف المنزلة والمهيمن عليها وهو كاف في تمثيلها .

الكون وخالق الكون

صفات الله وأفعاله :

« هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[1] .

خلق العالم ونظامه :

« إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس

---

(١) الحشر : ٢٣ – ٢٤ .

والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »[1] .

ملكوت الله وحاكميته :

« قـل مَن يرزقكم من السماء والأرض ، أمَّن يملك السمع والأبصار ، ومَن يخرج الحيَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ، ومَن يدبّر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتّقون »[2] .

« قل لِمَن الأرض ومَن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل مَن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون الله ، قل أفلا تتقون . قل مَن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله ، قل فأنّى تسحرون »[3] .

« وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً ، أفغير الله تتّقون »[4] .

« أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَن في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون »[5] .

---

(١) الأعراف : ٥٤ .
(٢) يونس : ٣١ .
(٣) المؤمنون : ٨٤ – ٨٩ .
(٤) النحل : ٥٢ .
(٥) آل عمران : ٨٣ .

لم يخلق هذا الكون عبثاً وما كان خلقه باطلاً :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً »[1] .

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً »[2] .

إن حياة الانسان ليست بلا غاية والانسان لم يُترَك سُدى :

« أيحسب الإنسان أن يُترَك سُدى »[3] . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون »[4] .

غاية الموت والحياة ابتلاء للانسان وامتحانه :

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً »[5] .

« ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون »[6] .

---

(١) سورة ص : ٢٧ :
(٢) آل عمران : ١٩٠ – ١٩١ .
(٣) القيامة : ٣٦ .
(٤) المؤمنون : ١١٥ .
(٥) الملك : ٢ .
(٦) يونس : ١٤ .

زينة الدنيا لاختبار الانسان :

« إنا جعلنا ما على الأرض زينــــة لها لنبلوكم أيّكم أحسن عملاً »[1] .

الانسان أشرف خلق الله :

« ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[2] .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »[3] .

الانسان خليفة الله في الأرض :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة »[4].

الانسان أمين لخزائن الله في الأرض :

« وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه »[5] .

جميع ما في الأرض للانسان :

« هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً »[6] .

---

(١) الكهف : ٧ .
(٢) الإسراء : ٧٠ .
(٣) والتين : ٤ .
(٤) البقرة : ٣٠ .
(٥) الحديد : ٧ .
(٦) البقرة : ٢٩ .

غاية خلق الانسان عبادة الله :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون »[1] .

نعَم الله وخيراته خلقت لينتفع بها الانسان :

« قل مَن حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحيـــاة الدنيا خالصة يوم القيامة »[2] .

ليس الأكل والشرب معصية ، إنما المعصية في الاسراف :

« كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين »[3] .

الناس من آدم ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى،وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[4] .

---

(١) الذاريات : ٥٦ – ٥٧ .
(٢) الأعراف : ٣١ .
(٣) الأعراف : ٣٢ .
(٤) الحجرات : ١٣ .

حيـــاة أخرى

وتلي هـــذه الحياة حياة أخرى حيث يجزى الإنسان على أعماله ويحاسَب عليها ، حتى على مثقال ذرّة : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم »[1] .

« إليه مرجعكم جميعاً ، وَعْدَ الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط »[2] .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»[3] .

« فمَن يعمل مثقال ذرّة خيراً يرَه ، ومَن يعمل مثقال ذرّة شراً يرَه »[4] .

حياة الدنيا فانية تافهة ، وحياة الآخرة باقية خالدة :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة

---

(١) الغاشية : ٢٥ – ٢٦ .

(٢) يونس : ٤ .

(٣) الأنبياء : ٤٧ .

(٤) الزلزال : ٧ – ٨ .

لهي الحيوان لو كانوا يعلمون »[1] .

العاقبة للذين لا يريدون علواً في الارض :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »[2] .

---

(١) العنكبوت : ٦٤ :
(٢) القصص : ٨٣ .

منجزات تعاليم الأنبياء

و

مميزات الحياة الإسلامية

هـــذه هي حقائق وعلوم ، ومسلّمات عن خالق الكون والحياة، والإنسان، ومصيرها ونشأتها الثانية التي تحصل للانسان عن طريق الأنبياء ، وكل بناء للحياة يقوم على هـــذا الأساس العلمي ، الفكري الخلقي ، لا يصعب أن يقاس عليه خططها وتفاصيلها، فكما لا يصعب على أي إنسان واعٍ أن يتكهن برؤية بذرة بنوع الشجر الذي ينبت منها ، وعن هيئة أوراقه وثماره ، ويستطيع طبيب أو عالم من علماء النبات أن يبيّن تفاصيل نشأة هذه الشجرة ومصيرها .

وكذلك يستطيع الذين يدركون كيف تؤثر عقيـــدة أو نظرية تتعلق بالعالم ونظامه ، مبدئه ومصيره ، وغاية حياته ،

ومنزلة الإنسان،ومسائل أساسية ورئيسية أخرى،على التفاصيل الأخرى للحياة، ويستطيعون بسهولة أن يبيّنوا ملامح الحضارة التي تقوم على ذلك الأساس .

ولا حاجة إلىأن ألفت نظركم إلى التناقض القائم في المبادىء والأصول الحسية والعقلية والإشراقية ، وبين هـذه التعليمات والمدنية الإلهامية ، وإن هذا التناقض قائم في التفصيل كما هو في الاجمال ، وإن الفارق الذي يلاحظ بين نواة التمر العربي ونواة التمر الهندي يلاحظ كذلك بين أثمارهما وأوراقهما وطعمهما ، ولن يتلاشى هذا الإختلاف بنمو الأشجار وازدهارها وبقائها مدة طويلة ، فإن رأيت شبهاً جوهرياً في نظامي حياة متناقض الأصل ، فاعلم أنك إما أخطأت في تعيين أساسه ومبادئه ، أو أن هذه المدنية قد مرت بعملية تلقيح بنظام حياة أخرى ويمكن أن تأتي هذه الشجرة بنوعين من الثمر .

وقد وقع هذا مع المدنية الإلهامية مراراً،أنها لقحت بالمدنية الحسية والإشراقية ، وقد وقع ذلك في التاريخ الاسلامي غير مرة بعد الخلافة الراشدة ، أن هذه الشجرة لقحت بالجاهلية العربية وأخرى بملوكية العجم ، وحيناً بالإشراقية اليونانيـة والإيرانية،وبالحياة الحسية المادية، ثم تسمى هذه الشجرة الملقحة المزدوجة بالحضارة الإسلامية أو الثقافة الإسلامية ، توسعاً في التعبير أو جهلاً لحقيقة الحضارة الإسلامية الأصيلة ، وقد اعتاد كثير من المؤلفين والمؤرخين المسلمين أن يتفاخروا بثمار هـــذه

الشجرة وما أتته من أكل في عصور وبقاع مختلفة .

وكلما أطلقت كلمة الحضارة الإسلاميـة ابتدر الذهن إلى دمشق وبغداد ، وقرطبة ، وغرناطة ، وأصفهان ، وسمرقند ، ودلهي ، ولكناؤ ، ويتمثل للعيون طراز خاص للفن المعماري (الذي جرت العادة بتسميته الفن الإسلامي) ومن نماذجه الرائقة قصور الملوك الفخمة ، والسرايات الجميلة ، والدهاليز الواسعة ، والمقابر الجميلة البديعة ، وتجددت ذكرى أناقة الأمراء المسلمين وتظرّفهم في الحياة والأزياء ، واحتضانهم للفنون الجميلة والحياة المترفـــة الزاهية ، التي كانوا يعيشونها في عواصم الحكومات الإسلامية ، وأصبحت مناظرها الزاهية الزاهرة ماثلة للعيون .

إن كثيراً من هذه التأنقات لم تكن إلا وليدة التبذير والعدول عن التعاليم الاسلامية وكانت نتيجة السخرة الجائرة ، وحين تقوم المدنية الاسلامية بروحها وهيكلها لم يكن لما ذكرنا وجود ، إذ لا يسمح الاسلام بالبناء الزائد عن الحاجة عبثاً بلا ضرورة ، لا غاية له إلا المظاهرة بالحشمة والفخفخة ، أو إظهار الترفـّه والسمعة وخاصة بناء المقابر العظيمة عمل غير إسلامي ، وإسراف وتبذير ، ومن الظلم أن يحتل الانسان حتى بعـد موته مساحة واسعة من الأرض بغير حاجة ، ويضيع في بناء مقبرته وجدرانها ما به قوام الحياة وما يغطـّي حاجات مئات من الناس ، ومن الناحية الشرعية الاسلامية فليس من المستحسن تخليد الاسم بأي طريق سوى العمل الصالح والأولاد الصالحين والصدقات الجارية ، والآثار

العلمية الدينية، والمبرّات والمآثر البريئة التي أريد بها نفع الخلائق وما عداها فمحاولة جاهلية، وكذلك الاسلام لم يشجع الموسيقى والغناء، وأما نحت الأصنام ونصب التماثيل فحرام في الشريعة الاسلامية، ولا تسمح الشريعة الاسلامية للرجل أن يلبس الحرير كما أن أواني الذهب والفضة محظورة في الشريعة الاسلامية.

وكل ما يؤدي إلى الغفلة في الحيـــاة وانشغال القلب بالدنيا والترف محرمة في المدنية الاسلامية، ولا ينظر إليه الاسلام بعين الرضا وقد ورد في الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين». ودعا النبي ﷺ فقال: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا غاية رغبتنا»، وأما ما يسمى بالمدنية الاسلامية والحضارة الاسلامية وما تعوّده مصنفونا ومؤرخونا القوميون، ويسرّون بتقديمه مقابل المدنية الغربية سرور الإنتصار والإفتخار فهو أسلوب حـــياة الملوك المسلمين، الذي لا يتحمل الاسلام وشريعته مسؤولية أعمالهم كلها.

فإذا لم تكن هناك عملية التلقيح، ونمت شجرتان مختلفتان على طبيعتها بعيدة إحداهما عن الأخرى، فلا تتحدان ولا يكون بينهما لقاء، غير أنهما شجرتان ثابتتان على هذه الأرض، ولا يوجد أي شبه بين هـــاتين المدنيتين غير الاشتراك في أداء وظائف الحياة ومظاهر الفطرة البشرية وخواصها الانسانية.

وفوق ذلك، إن نظام صحتها ووسائل رقيّها وحامليها مختلفة بعضها عن بعض، وفي بعض الأحيـــان يتصادمان، فإن

العوامل والأحوال التي تعتبر عوامل الرقيّ والنموّ للمدنيـــة الإلهامية تعـــدُّ في نفس الوقت عوامل انحطاط المدنية الحسية والمادية . إن العوامل التي تفتخر بها المدنية الحسية تعافها وتغار منها المدنية الإلهامية ، فربيع إحداهما خريف للآخر ، والشيء الذي يكون مصدر الحياة للأولى يصبح السم القاتل للأخرى .

ولنُلقِ نظرة على العناصر التركيبية للمدنيـــة الإلهامية ونتناولها بالنقد والتحليل ونعرف مـــا هو التأثير الثوري الذي تخلّفه هذه العناصر على عقليـــة الإنسان وطبيعته وعلى أخلاقه واجتماعه .

إن المدنية الإلهامية تؤمن قبل كل شيء بأن هـــذا العالم ليس بلا ملِك ، ولا دولة مشتركة لعدد من الملوك ، بل له ملك واحد وهو خالقه وصانعه وحاكمه ومدبره ، له الخلق والأمر كله وله الحكم « ألا له الخلق والأمر » ، ولا يحدث في هذا العالم شيء إلا بأمره وقدرته ، وإن العلة الحقيقية لوجوده هي إرادته وقدرته . إن هذا الكون كله خاضع له في كونه ووجوده ، ومنقـــاد له وطوع أمره «وله أسلمَ مَن في السماوات والأرض» وعلى المخلوقات التي تملك إرادة وخياراً أن تخضع له « ألا لله الدين الخالص » .

وإن الأثر العقلي الأول الذي يترتب من هـــذه العقيدة على الإنسان هو أن العـــالم كله تابع لمركزية ونظام واحد ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ووحدة في القانون ، ثم بعد هـــذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسير كامل

للحيـاة ، وأن يقوم فكره وعمله في هـــذا الكون على حكمة وبصيرة .

إن الفلسفة الغربية تعترف بهذا الأثر ، وتعترف بعجزها عن خلقه . يقول مؤرّخ الفلسفة الحديثة (الدكتور هرلد هوفدنج) :

« إن فكرة كل دين قـائمة على التوحيد ، وهي تقوم على أن علة الوجود لجميع ما في الكون واحـــدة – وبغضّ النظر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورة لازمة – يخلّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهتماً على الطبيعة الإنسانية ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء في العالم مرتبطة حسب قـانون واحد ، بغضّ النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلة واحدة أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هـذه الوحدة في الكثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس ، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزل عنها بتأثير وجود الكثرة في المظاهر الطبيعية التي كان يتيه ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة »[1] .

وتخلّف هـــذه العقيدة تأثيراً أهم منه وأكثر ثورة فيما يتعلق بالأخلاق والأعمال ، فتقتلع عن الفكرة والقلب جـذور

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة للدكتور هرالد هوفدنج .

الحرية المطلقة ، والشعور بعدم المسؤولية أمام أية قوة أو محكمة، فلا يحسب سكان هـذه الأرض وخزائنها ، بل وطاقاته وجسمه وأعضائه ملكاً لنفسه ، إنما يعتبرها أمانة من الله ، ويحـذر من استعمالها ضد قانونه ومرضاته ، إنه يحسب نفسه محكوماً ، تابعاً لأكبر قوة وأعلاها ، ومسؤولاً لدى محكمة عظيمة . ويمكننا أن نقيس تأثير هذه العقائد والخضوع لها في فروع الأعمال والأخلاق، وفي شعَب الحياة كلها .

إن الاعتقاد بأن لهذا العالم ولهذه الحياة غرضاً وهدفاً، وأنهما لم يخلقا عبثاً ، وأن الإنسان تابع ومحكوم بلا ريب ، يحدث في الإنسان الشعور بالمسؤولية والشعور بقيمة الحياة الحقيقية، فيغتنم كل لحظة من لحظات حياته وكل نفس من أنفاس عمره ولا يحب أن يضيعها ، لتتوفر له السعادة في الحياة والتمتع بها .

بل وإنما يفعل ذلك تأميناً للحياة الآتيـة لإسعادها وتوفير الراحة فيها ، وهو يعتبر الحياة وزينتها وزهرتها إمتحاناً وبلاءاً له ، فلا يخوض فيها إلا كما يدخل أحد في الاختبار (بدلاً من أن يسرح فيها كما يسرح غافل في منتزه فسيح ويعتقد أن الحياة فرصة طويلة للترف والنعمة) ولا يخطو إليها إلا بتفكير وتفهم دقيق ، ولا تصدر منه أعماله إلا بعد فكر طويل ، ويزيل من نفسه السكر والإهمال أو التريث والتهاون في العمل، سأل رجل عبد الله بن عباس أن يصف عمراً، فقال عبد الله : « كان كالطير الحذري كأن له بكل طريق شركاً » .

إن الاعتقاد بأن هذه الحياة فانية والحياة بعد الموت باقية خالدة ، يمنع الرجل من تركيز عنايته على الدنيا ونعيمها ، فلا يكون المقياس للنجاح في هذه الحياة ، ظواهر الأشياء والأفعال فتتغير له الموازين والمقومات البتة للأخلاق والأعمال ، فلا يبقى ميزان ولا مقياس إلا النفع في الدين والأجر في الآخرة [١] ، فلا ينغمس مثل هذا الرجل في لذة الدنيا ونعيمها أبداً ، ولا تتولد فيه عاطفة المنافسة في جعل هذه الحياة أكثر راحة ورخاءاً ، إنهم يقضون حياة زهد وفقر لا يمثلها الرهبان والزهاد وسكان الصحاري وهم يملكون زمام الأمور ويتولون الحكم ، إن قصة زهد عمر معروفة متواترة في التاريخ وكان إذا أصرّ عليه أحد على أن يتناول طعاماً لذيذاً كان يقول أخاف أن يقال لي يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » [٢] . وإن قدم إليه أحد طعاماً لذيذاً سأله عمر أيأكل المسلمون كلهم مثل هذا الطعام أو يستطيعون أن يأكلوه ؟ فإن كان الجواب في النفي ، كان لا يصيب منه شيئاً ، وإن قصة رحلته إلى بيت

---

(١) إن الأثر الذي يترتب على أعمال الانسان وأخلاقه بفعل هذه العقيدة يعترف بعمقه وسعته علماء الأخلاق الماديون أيضاً ، يقول (ليكي Lecky) في كتاب « تاريخ أخلاق يورب » :

« لو عرف الانسان وأيقن أنه سوف يجد جزاء أعماله كثواب دائم أو عذاب خالد في محكمة حاكم خبير وبصير ، كانت هذه العقيدة محركاً كبيراً للأعمال الصالحة ، ولا يخطر بباله خاطر المعصية » .

(٢) الأحقاف : ٢٠ .

المقدس بعد فتحها ستخلد في التاريخ ، قال أبو العتاهية :

« قدم عمر بن الخطاب (رض) الجابية على جمل أو رق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، رجلاه بين شعبتي رحله بلا ركاب ، وطؤه كساء بنجابي ذو صوف ، هو ركابه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة ، محشوّة ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، عليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه »[1] . وهذه هي رحلة أكبر حاكم على وجه الأرض في زمانه .

سأل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ضرار بن ضمرة أن يصف علياً رضي الله عنه ، وقد صحبه طويلاً وعرفه عن كثب ، فاعتذر ضرار بن ضمرة ، ولكن لما ألحّ معـــاوية وصف علياً رضي الله عنه وصفاً يصوّر به حاله في الامارة والخلافة ، قال :

« كان يستوحش من الدنيـا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللبـاس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنـــا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنـا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة ولا نبتديه ، فإن تبسّم فعن أسنان مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في

---

(١) البداية والنهاية ج / ٧ ، ص / ٥٩ — ٦٠ .

باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد تمثّل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول : يا دنيا ! أبي تعرّضتِ ، أم لي تشوّفتِ ، هيهات هيهات ، غُرّي غيري ، وقد طلقتكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيكِ ، فعمركِ قصير وعيشكِ حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق »[1] .

كان الإيمان بالآخرة وخوف الحساب فيها وخشية الله ، قد أحدث فيهم شعوراً بالمسؤولية ، والحذر الشديد والورع ، يصعب تصوُّره ، ولعل هذه القصص القليلة تصوّر بعض هذه الجوانب:

كان أمير المؤمنين عمر (رض) يقول: مثل خلافتي وإمارتي مثل ثلاثة ركب سافروا فأودعوا نفقتهم رجلاً منهم فقالا له أنفق علينا ، فهل له أن يستأثر عليهم بشيء ؟. وكان يقول في بعض الأحيان : مثلي كوليّ اليتيم إن أغناه الله استعفّ ، وإن مسّته الحاجة أخذ منه بقدرها .

قَدِمَ أحنف بن قيس على عمر بن الخطاب في وفد من العراق ، قدموا عليه في يوم صائف شديد الحرّ ، وهو معتجر بعباءة ، يهنأ بعيراً من إبل الصدقة ، فقال : يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ !

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ، ص ١٢٢ .

فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين ، فقال رجل من القوم : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين! فهلاّ تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك، فقال عمر : « وأيُّ عبد هو أعبد مني ؟! » [1] .

وكان لعمر بن عبد العزيز غلام يأتيه بقمقم من ماء مسخّن يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين فتجعله عنده حتى يسخن ثم تأتي به ؟ قال نعم أصلحك الله ! قال أفسدته علينا ، قال فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام التي كان يغليه فيها ، فيجعله حطباً في المطبخ ، قال وأصابته جنابة في ليلة باردة فأسخن له ماء فأتى به فقال أين سخنته ؟ قال : على مطبخ العامة ، قال : فنحّه ، قال : فناداه رجل وخاف عليه إن اغتسل بالماء البارد في تلك الليلة، أنشدك الله يا أمير المؤمنين في نفسك ، فإن كان لا بد فعوّضه قيمة ، ثم أدخله بيت مال المسلمين ، ففعل ذلك عمر [2] .

وكان عمر يصلي العتمة ، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن ، فدخل عليهن ذات ليلة،فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة ما شأنهن ؟ قالت: إنه لم يكن

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ، ص/ ٦٢ .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص/ ٤٤ - ٤٥ .

عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل فكرهن أن تشم ذلك من أفوههن ، فبكى عمر ثم قال لهن « يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان، ويمر بأبيكن إلى النار ، قال : فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرف [1] .

ووفد على عمر بن عبد العزيز بريد من بعض الآفاق، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت ناراً، وأجلس الرسول وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومن بهـا من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل،وغير ذلك من أمور المسلمين فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة،يسأله فيحفي السؤال، حتى إذا فرغ عمر من مسألته، قال له:يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تعنى بشأنه ؟ قال : فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال: يا غلام عليّ بسراج ، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء فقال : سل عما أحببت،فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها ، وقال : يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمراً مـا رأيتك فعلت مثله ، قال وما هو ؟ قال : إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك ، فقال : يا عبد الله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين،وكنت أسألك عن حوائجهم

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص/ ٥٥ .

وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تقد بين يديّ فيما يصلحهم، وهي لهم، فلما صرت لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين[1].

كذلك يتولد بالإيمان شعور بكرامة الإنسان ورفعته ، فلا يرضى الإنسان في حال من الأحوال أن ينزله منزلة البهائم ، ولا يرتاح قلبه بأن يعامل بني جنسه معاملة العجماوات والجمادات ، ولا يستعبدهم لتفوّقه الشخصي والغلبة عليهم ، ولا يرى فارقاً بينه وبين بني جنسه فيذلّهم ويهينهم. وهنا قصة طريفة في هذه المساواة البشرية واحترام الإنسانية :

قال أنس بن مالك (رض) : كنا عند عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ! قال : وما لك ؟ قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل ، فأقبلت فرسي ، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص ، فقال فرسي ورب الكعبة ، فلما دنا مني عرفته ، فقلت فرسي ورب الكعبة ، فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول خذها وأنا ابن الأكرمين ! قال : فوالله ما زاده عمر على أن قال له اجلس ، ثم كتب إلى عمرو : « إذا جاءك كتابي هذا فأقبِلْ ومعك ابنك محمد » . قال : فدعا عمرو ابنه ، فقال أأحدثت حدثاً ، أجنيت جناية ؟ قال لا ، قال فما بال عمر يكتب فيك ؟ قال : فقدم على عمر ، قال أنس

---

(١) نفس المصدر السابق ص / ١٦١ - ١٦٢ .

ابن مالك : فوالله أنا عند عمر ، إذ نحن بعمرو وقـــد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه ، فقال أين المصري ؟ فقال ها أنا ذا ! قال دونك الدرّة ، فاضرب ابن الأكرمين ، قال فضربه حتى أثخنه ، ثم قال أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، فقال يا أمير المؤمنين قـد ضربت مَن ضربني ، قال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه ، حتى تكون أنت الذي تدعه ، أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! ثم التفت إلى المصري فقال : « انصرف راشداً ، فإذا رابك ريب فاكتب إليّ »[1] .

إنني ما عثرت في تاريخ المدنية والحضارة كله مجتمعاً كهذا ، كان مجتمعاً مبدئياً محضاً وأخلاقياً محضاً ، لم يكن فيـه مقياس العز والفضيلة والوجاهة ، المـال والثروة والمنصب ، والتسامي بالنسب والكرامة ، بـل كان مقياسه الأخلاق والتدين والخوف من الله .

لم يكن يحصل فيه العز والشرف والرئاسة والتفوق بالملابس والمظاهر والوسائل الأخرى ، بل كان جلّ العز والشرف بالإيمان بالله والعمل الصالح ، والسيرة الحسنة .

فمما حكاه التاريخ لنا في هذا الباب :

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص ٨٦ - ٨٧ .

انــه حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة ، منهم سهيل بن عمرو ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، فخرج الآذن فقال : أين صهيب ؟ أين عمار ؟ أين سلمان ؟ فتمعّرت وجوه القوم ، فقال واحـــد منهم : لم تتمعّر وجوهكم ؟ دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولأن حسدتموهم على باب عمر ، لمـا أعدّ الله لهم في الجنة أكثر .

وجاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر ، فيقول : ها هنا يا سهيل، ها هنا يا حارث، فينحيهما عنه ، فجعل الأنصار يـــأتون عمر فينحيهما عنه حتى صارا في آخر الناس ، فلما خرجا من عنده ، قـــال الحارث بن هشام لسهيل بن عمرو ، ألم ترَ ما صنع بنا ؟ فقال له سهيل : أيها الرجل لا لوم عليه، ينبغي أنِ نرجع باللوم على أنفسنا دعى القوم فأسرعوا ، ودعينا فأبطأنا .

ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقالا له : قد رأينا ما فعلت اليوم وعلمنا أنا أتينا من قبل أنفسنا ، فهل من شيء نستدرك به؟ فقال لهما : لا أعلمه إلا هـــذا الوجه ، وأشار لهما إلى غزو الروم — فخرجا إلى الشام فماتا بها رحمهما الله »[1] .

وعندما قـــال أبو عبيدة لعمر وقت قدومه إلى الشام :

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ، ص / ٤٨٣ — ٤٨٤ .

« العيون شاخصة إليك يا امير المؤمنين لو أصلحت من ثيابك قليلاً ، فقال عمر عندما سمع هذا الكلام أو لو غيرك يقولها : يا أبا عبيدة ، إنكم كنتم أذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغير الإسلام يذلكم الله »[1] .

وكان سالم مولى أبي حذيفة من الموالي ، وقد قال عمر عند وفاته : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته .

وقال الشعبي : خطب بلال وأخوه إلى أهل بيت من اليمن ، فقال أنا بلال وهذا أخي عبدان من الحبشة ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا عبيدين فأعتقنا الله ، أن تنكحونا فالحمد لله ، وأن تمنعونا فالله أكبر .

ويكون متبعو هذا الدين وممثلو هذه المدنية ، حاملي لواء الحق والعدل في الدنيا ، وجنود الله على الأرض ، لا ينحرفون عن حادة الحق والعدل قيد شعرة ، لا في الصداقة ولا في العداوة ولا يفرقون بين الأقارب والأباعد ، يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون »[2] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) سورة المائدة : ٨ .

ولا يكون اشتراكهم في العمل وتعاونهم فيه غير مشروط وغير محدود، فلا يتعاونون إلا في البرّ والعدل، يقول الله تعالى: «وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[1].

وكان من نتيجة هذه التربية أن النبي ﷺ عندما قال بمناسبة ما: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقالوا: يا رسول الله! «هـذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً»، هنالك فسره رسول الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة، فقال: «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه»[2]، هنالك اقتنع الصحابة، وشفيت صدورهم، فازدادوا إيماناً على إيمان، وهو مثال بليغ رائع من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول.

ان تأييد جماعة أو فرد على أمر من الجاهلية، والإنحياز إلى أسرة أو قوم، أو جماعة بدون حق، يسمى في الإسلام بالعصبية الجاهلية، وهو مناف لروح الإسلام ومقاصده، ومعصية شرعية وقد عدّه بعض كبار الفقهاء، وأئمة الإسلام من الأسباب الرئيسية لرد الشهادة، فمن دعا إليها فهو مردود الشهادة عندهم، ويوضح الإمام الشافعي روح الإسلام الحقيقية، وفكره في تفصيل في كتابه الجليل – كتاب الأم – المجلد السادس، فيقول:

---

(١) سورة المائدة: ٢.

(٢) حديث متفق عليه.

« من أظهر العصبية بالكلام ودعـا إليها ، وتألف عليها ، وإن لم يكن يشهد نفسه بقتال فيها فهو مردود الشهادة ، لأنـه أتى محرماً ، لا اختلاف بـين علماء المسلمين في ما علمته ، الناس كلهم عباد الله تعالى ، لا يخرج أحد منهم من عبوديته ، وأحقهم بالمحبة ، أطوعهم له ، وأحقهم من أهل طاعته بالفضيلة ، أنفعهم لجماعة المسلمين من إمام عدل ، أو عالم مجتهد ، أو معين لعامتهم وخاصتهم ، وذلك أن طاعة هؤلاء طاعة عامة كثيرة ، فكثير الطاعة خير من قليلها ، وقد جمع الله تعالى الناس بالإسلام ونسبهم اليه فهو أشرف أنسابهم ، قال : فإن أحب امرءاً فليحب عليه ، وإن خص امرء قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ، ما ليس يحل له ، فهذه المـلة ليست بعصبية ، وقلّ إمرؤ إلا وفيه محبوب ومكروه ، فالمكروه في محبة الرجـل من هو منه أن يحمل على غـيره ، وحرم الله تعالى عليه من البغي والطعن في النسب والعصبية ، والبغضة على النسب لا على معصية الله ولا على جناية من المبغض على المبغض ، ولكن بقوله أبغضه لأنه من بني فلان ، فهذه العصبية المحضة التي ترد بها الشهادة .

فإن قال قائل مـا الحجة في هذا ؟ قيل له ، قال الله تبارك وتعالى :

« إنما المؤمنون إخوة » ، وقال رسول الله ﷺ : « وكونوا عباد الله إخواناً . فـإذا صار رجل إلى خلاف أمر الله تبارك وتعالى اسمه ، وأمر رسول الله ﷺ بلا سبب يعذر بـه ويخرج

من العصبية ، كان مقيماً على معصية لا تأويل فيها، ولا اختلاف بين المسلمين فيها ومن أقام على مثل هذا كان حقيقاً أن يكون مردود الشهادة »[١] .

إن القرآن الكريم يصف جماعة المسلمين وصفاً دقيقاً ويحدد ملامحها بقوله : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله »[٢] .

وليست في الإسلام عناصر رفض الدنيا وأسبابها، ولا عناصر الرهبانية والعيش في الصحراء والقفار ، كما تدعو اليـــه الفلسفة الإشراقية ونظامهـــا ، فالانتحار حرام في شريعة الإسلام ، والتنكيل الجسماني والتجرد ، وترك النكاح فعل لا يستحسن ، كما أن الحياة في الصحراء إحتساباً ، والخلوة الدائمة فعل منكر ورياضة تخالف الفطرة، كذلك التطرف في كبت النفس، والغلو في العبادة والزهد يخالف تعاليم الإسلام ، وقد سبق قوله تعالى: « قـــل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»[٣] ، وفي آية أخرى: « كلوا واشربوا ولا تسرفوا»[٤]،

---

(١) كتاب الأم، شهادة أهل العصبية، المجلد السادس ص/٢١١ - ٢١٢ .

(٢) سورة البراءة : ٧١ .

(٣) الأعراف : ٣٢ .

(٤) الأعراف : ٣١ .

وقال النبي ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام» وقال أيضاً : «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني »، وقال لعبدالله بن عمر الذي كان يصوم دائماً ويصلي الليل كله : « فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، صم وأفطر » ، ودعاء المسلمين الذي استحسنه القرآن وحث عليه : «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وليست الرجولة في هذه العقيدة الإسلامية أن يذكر الرجل ربه في غار منقطعاً عن الدنيا والخلق ، بل الرجولة في أن يذكر الله في فتنة الحياة ، وصخب الأسواق وكثرة الأشغال ، فيقول القرآن في معرض المدح والثناء : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »[١] .

ولا يقتصر الإسلام على الدعوة إلى ذكر الله وعبادته ، بل يدعو كذلك إلى كسب المعاش الطيب ، والإرتزاق الكريم ، وقد جاء في القرآن الكريم : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله »[٢] .

إن في هذه التعاليم النبوية الزكية مبادىء وحقائق محكمة ثابتة للأخلاق والاجتماع ، وللأخلاق أسس قائمة متينة لا تتزلزل

---

(١) سورة النور : ٣٧ .
(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

ولا تقبل أي تأويل وتحريف ، على عكس التمدن العقلي، فكل ما هو شر في عينها يظل شراً إلى يوم القيامة ، والخير خير في كل عصر ومصر ، فالحياء والأدب والسلوك والوفاء والايفاء بالعهد والصدق والأمانة والعفاف والاجتناب من المعاصي، حسن جميل لكل عصر وبلد، على كل حال، وهذه الصفات التامة والأخلاق كلها تستحق كل تقـــدير وإعجاب ، ولا بدّ منها للإنسان والإنسانية ، ولا تتغير مبادئها وحقائقها ، وأمـــا أضدادها فمستقبحة مذمومة دائمـاً في كل مكان وزمان ، وان حكم العقل القاصر الخاضع – لعوامـــل داخلية وخارجية من بيئة فاسدة وتربية غير سليمة – وافتى بصلاحها وفوائدها في بعض الأحوال والظروف .

ولا يكون ذوق الانسان ووجدانه، أو تجاربه وعقله معياراً للأخلاق، إذ كل شيء من هذه الأشياء متغير يتأثر بأشياء كثيرة.

وكثيراً مـا تقع الأمة والمجتمع فريسة « للسوفسطائية » في عهد المدنية العقلية والفلسفة ، فينكر الفرق بين حقائق الأشياء والأخلاق والصفات ، ويشك في المقاييس القديمـة الدائمة للخير والشر وتعريفها ، ولا يعتبر فيـــه الأخلاق والصفات والحسن القبيح إلا نسبياً يتغير بتغير الزمان والمكان ، ويستوجب هـذه النفسية الاجتماعية أشد انحـلال خلقي واختلال اجتماعي ، وإذا غشيت هـــذه الغاشية جماعة إنسانية في عصر من العصور ، لا ينجيها شيء من الهلاك والدمار ، ومـــا هلكت الأمة اليونانية

القديمة إلا بها ، وكذلك أباحت إيران القديمة كل شيء ، وقلبت نظام المدنية والاجتماع رأساً على عقب فانقرضت وبادت ، وقد سجّل مؤرخو الروم وإيران ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن تاريخ هاتين الأمتين العظيمتين ، وعن تدهورهما وانهيار حضارتهما ، وإنقراض الامبراطوريتين في صراحة ووضوح ، وكان مردّ ذلك في نظرهم تضعضع أُسس المثل والقيم الخلقية ، وتفكك نظام الأسرة ، وانتشار الفوضى وروح الثورة والقلق في المجتمع الروماني والمجتمع الايراني حتى لفظتا نفسهما الأخير ، وخبا مصباحهما إلى الأبد .

ولا تختلف أوضاع أوروبا اليوم عن المصير الذي صارت اليه الأمتان القديمتان ، فالمفكرون والمصلحون الغربيون يشعرون بخطر محدق بهذه الحضارة منذ زمان ، وينذرون منه ، ويرفعون صيحات إنذار إثر صيحات في محاضراتهم وكتاباتهم ، ويصرحون بأن هذه الحضارة في احتضار ، وفي طريق إلى الانتحار ، وان أيامها بل ساعاتها معدودة ، ونهايتها قريبة ، ولكن لا يجدون كذلك حلاً لهذه الأزمة ، فقد أفلت الزمام ودنا الحمام .

ولن يغيث هذه الحضارة المنتحرة ولا ينقذها من الساعة الرهيبة إلا تعاليم النبوة الأخيرة والدين السماوي المحفوظ التي لا تترك زمام الحكم في الأخلاق ومقياس الحسن والقبيح إلى العقل والتجربة وحدهما — وقد وضح ضعفهما وسرعة خضوعهما للعوامل والمؤثرات الدخيلة الطارئة — بل تملكه بنفسها ، ولا

تزال تقود المدنية البشرية وتجدف سفينتها وتحرسها من القرصان والأمواج الطاغية من الطوفان ، وتقول بلسان القرآن : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » .

وليس من الممكن أن تقدم ملامح المدنية الإسلامية وقسماتها وخصائصها كلها – التي لا تسعها الكتب الكبيرة – في هذا البحث المقتضب ، وما أردت الآن إلا تقديم عصارتها وطبيعتها الخاصة ، ولعلكم فهمتم روحها من هذا العرض الوجيز ، والإلمامة القصيرة ، وتمثل في أعينكم الفرق الأساسي والجوهري الذي يوجد بين الحضارات المذكورة ، وبين هذه الحضارة الإلهية .

وأقول لكم أخيراً إن كانت المدنية المادية جديرة بالتفضيل والإيثار ، وكانت هي خيرتكم وأنتم مقتنعون بأن نتائجها ومعطياتها هي أنفع للإنسانية والأخلاق ، فلا مجال للبحث ولا داعي للكلام ، لأن هذه المدنية « السعيدة » تحكم اليوم أكبر رقعة من الأرض ، ومع أن فيها انجذاباً مغناطيسياً لعدد كبير (بل أكبر عدد) من أفراد الجنس البشري مع ذلك ، ان هنالك جهوداً جبارة ، وعبقريات عظيمة وكفايات نادرة تتركز على توسيع نظامها وترقيق حواشيها ووشيها ، والزيادة في ثروتها وسرعتها ، وهي ليست في حاجة إلى أن تضموا أصواتكم إلى صوتها وتتضموا إلى معسكرها القوي المنتصر ، وتصفقوا لها في حماس وقوة ، وفي طرب ونشوة ، فهذا بحر واسع زاخر من شرق الأرض إلى غربها ، وتيار جارف كالسيل العرم ، ليس لكم

إلا أن تجتهدوا في البحث عن مكان لكم في ركن من أركان هذه الحضارة، وفي هامش من صفحتها، وفي مؤخر ركبها، وتتشرفوا بذلك وتعتبروه أكبر فتح وانتصار .

ولكن إذا كان إختياركم بالضد ، فالحاجة ماسة إلى أن تجاهدوا في سبيل قيام الحضارة الإسلامية جهاداً كبيراً ، وتسبحوا ضد مجرى هذا النهر الفائض ، وتعكسوا التيار ، بل إلى أن توجهوا النهر إلى غير وجهته ، وتغيّروا مجرى التاريخ ، وترغموا مجاري الأمور على أن تنحوا نحواً جديداً ، ويلزم قبل كل شيء أن تضحوا بهذه الأهواء والأفكار والطقوس والعادات والمثل والقيم التي آمنتم بها وصارت جزءاً من حياتكم ، لنشؤكم في المدنية الحسية والمادية ، والحضارة الغربية منذ زمن طويل .

ويجب أن تتركوا لهذه الغاية السامية غايات أخرى من الحياة ويجب أن يكون نظام تعليمكم وتربيتكم تابعاً ومنسجماً، وكذلك يجب أن تسبك سبكاً جديداً ، منسجماً مع الغاية الكريمة ، متجاوباً لها .

فحقيق إن هذه الغاية أكبر خدمة للإنسانية ، وليست مسؤوليتها إلا على عواتقكم إذ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وقد نثر الذكاء الإنساني ، والتجربة البشرية جعبتها ، وأفرغت كل سهامها ، فما كانت إلا سهاماً طائشة ومسمومة ، ولم يبق للإنسانية أمل في النجاة إلا في الرسالة السماوية الأخيرة وحضارتها المثلى .

وأختم هذا الفصل بمقطوعة شعرية لإقبال ، هتف فيها بالمسلم وأثار فيها الغيرة والإيمان ، وناشده بإسم العالم والإنسان، يقول:

« أنت للناموس الأزلي حارس وأمين ، ولسيد هذا الكون يسار ويمين [1] ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم وبقـاء الأمم ، اشرب كأساً فائضة من اليقين ، وانهض من حضيض الظن والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته .

الغياث من الافرنج الذين خلبوا العقول وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال، ومرة بالقيود والأغـلال ، وتارة مثّلوا دور « شيرين » وطوراً لعبوا دور « ابرويز » [2] . لقد أصبح العـالم كله خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم ، ياباني الحرم ! ويا خليفة ابراهيم ! انهض لبناء العـالم من جديد ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته [3] .

•

---

(١) يعني انه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها .

(٢) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمـة ، تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند ، تمثل فيها « شيرين » دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال ، و « ابرويز » دور الملك القاهر الذي عشقها واستأثر بها .

(٣) « زبور عجم » ١١٦ — ١١٨ باختصار وتوسع .

الفهرس

تطلب جميع منشوراتنا من
الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٣١٩٠٣٩ - ٢٩٥٥٠١ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقيا: بيوشران